الأسرى الأوروبيون في العصر العثمانى
(١٥٥١-١٨٣٢م)

د/المبروك محمود صالح سليمان

قسم التاريخ

كلية الآداب والعلوم- طبرق

جامعة عمر المختار

ليبيا

الأسرى الأوروبيون في العصر العثمانى (١٥٥١-١٨٣٢م)

د/المبروك محمود صالح سليمان
قسم التاريخ – كلية الآداب والعلوم/ طبرق – جامعة عمر المختار

تمهيد

مارست إيالة طرابلس الغرب(*) – كغيرها من الإيالات المطلة على حوض البحر المتوسط – نشاط الجهاد البحري (القرصنة)(**) ضد السفن الأوروبية، وهو ما جعلها تتحصل على نصيب وافر من الأسرى الأوروبيين. وقد فرض هذا النشاط على طرابلس الغرب عدة عوامل متمثلة في الأطماع الأوروبية في موقع الإيالة الجغرافي؛ كنافذة لإيالات الشمال الأفريقي على البحر المتوسط. مما جعل الإيالة تتصدى لتلك الأطماع فَاسْتَولَى بحَّارتُها على العديد من السفن الأوروبية وَاقْتَادُوا الكثير من الأوروبيين أسرى إلى طرابلس. كما كان تأخر العديد من الدول الأوروبية في دفع الإتاوات المفروضة على سفنها دافعًا للاستيلاء على سفنها وبحَّارتها وركابها. فضلاً عن ممارستها لهذا النشاط بغية تعويض الخسائر التي لحقت بها جراء عقد بعض الاتفاقيات التي حدَّتْ من نشاطها.

وقد استهدف ذلك النشاط عدة دولٍ أوروبية مختلفة: كمالطا وفرنسا وإنجلترا وهولندا والدنمارك والسويد والدويلات الإيطالية وصقلية. ويُعدُّ تناول ظاهرة الأسرى الأوروبيين نوعًا من البحث في تاريخ فئة مستضعفة عاشتْ في المجتمع الطرابلسي وتحتاجُ إلى إلقاء الضوء عليها بصفتها جانب مغمور من التاريخ الاجتماعي للإيالة.

(*) استخدم العثمانيون منذ القرن السادس عشر اسم طرابلس الغرب لوصف ليبيا. كما أطلقوا عليها خلال مرحلة العهد العثماني الأوّل والعهد القرمانلي والمرحلة العثمانية الثانية اسم إيالة وذلك حتى عام ١٨٦٥م، حينما صدر مرسوم بتحويل طرابلس من إيالة إلى ولاية وهي أكبر وحدة إدارية في التشكيلات العثمانية.

(**) القرصنة: مفهوم غربي يقابله عند المسلمين الجهاد البحري، وهي أسلوب فرضته طبيعة المرحلة على العلاقات الدولية خلال تلك الفترة. للمزيد ينظر: المرجع نفسه، ص ١٥.

ويتمحور هدف هذا البحث في محاولة التعرُّف على دور الأسرى الأوروبيين في بعض مجالات الحياة المختلفة بطرابلس، ولاسيما بعد دخول بعضهم الدين الإسلامي ومشاركتهم في المؤسسات الإدارية والعسكرية والأعمال الزراعية والحرفية والتجارية والعمرانية.

وكان من أهم الأسباب التي دفعتني إلى دراسة هذا الموضوع: ندرة الدراسات الأكاديمية التي تناولتْ هذا الموضوع بالرُّغم من أهميته. ويهدف البحث إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات: كيف تم أسرهم؟ وما جنسيات هؤلاء الأسرى؟ وما الدور الذي لعبوه في المجتمع الطرابلسي؟ وما تأثير ذلك الدور على الولاة الطرابلسيين؟ وما موقف حكومات بلدانهم منهم؟

ولما كان بحثي هذا يتناول موضوع الأسرى ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بمعرفتهم، فلا بد لنا من معرفة حقيقة الأسرى، كما أنَّه لا يمكننا الحديث عن هؤلاء الأسرى بمعزل عن التعريف بهم. فقد عُرِّف الأسرى لغويًّا: بـ"جمع أسير وهو مأخوذ من الإيسار وهو العقد الذي يُشدُّ به الشيء كالحبل أو السلسلة فيقال أَسَرَهُ يَأْسِرَهُ أَسْرًا، أي شدَّهُ بالإسار لئلا يفلت وسُمي كلُّ أَخِيذٍ أسيرًا وإن لم يؤْسَرْ"[1]. ويوصف بلفظ أسير كل من الرجل والمرأة، فيقال: رجل أسير وامرأة أسير فيستوي فيه المذكر والمؤنث، ويجمع الأسير على أَسَارَى[2].

أولاً: الصراع العثمانى الأوروبي فى البحر المتوسط (١٥٥١-١٨٣٢):

شكَّل حوضُ البحر المتوسط مسرحًا للصراع المسلح بين الدول الأوروبية وإيالات المغرب العثمانية لاسيما إيالة طرابلس الغرب منذ أواخر القرن السادس عشر الميلادي وما تلاه من القرون، وقد بدأ هذا الصراع على إثر نجاح دولَتَيّ إسبانيا والبرتغال –

---

(١) محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، تحقيق: محمود خاطر، ط١، ج١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص ٧.

(٢) محمد بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ج٥، ص ٧٦.

تساندهما بلدان أوروبا الكاثوليكية في وقت كان العالم الإسلامي يعاني الضعف والتمزق– في إخراج المسلمين من الأندلس والقضاء التام على دولتهم بسقوط غرناطة سنة ١٤٩٢م، ثم تعقب الإسبان والبرتغاليون – تساندهم البابوية – المسلمين في شمال أفريقيا، وبذلك انتقل الصراع إلى حوض البحر المتوسط بين ضفتيه – القوة البحرية المغاربية (طرابلس، تونس، الجزائر) من جهة، والقوة الأوروبية من جهة أخرى– هاتان القوتان اللتان تبادلَتَا السيطرة على الإبْحار فيه والهيمنة عليه، فبينما شهد القرن الخامس عشر سيطرة صليبية، شهد القرن السادس عشر توازنًا، بل رجحت كفة القوة للبحرية المغاربية بفضل مساعدة الدولة العثمانية لها، وأصبح تفوقها البحري واضحًا من بداية القرن السادس عشر، حيث نجح العثمانيون في الاستيلاء على جزيرة رودس سنة ١٥٢٣م، ومن ثَمَّ وصلت ضربات أسطولهم إلى جزيرة صقلية عام ١٥٣٤م. وخلال القرن السابع عشر الميلادي حققتِ الولايات المذكورة تفوقًا في حوض البحر المتوسط، لكن هذا التفوق كانت تتخلله بعض أعمال القرْصَنة الأوروبية على السواحل والسفن الطرابلسية التجارية والحربية، وقد بلغت القرصنة الأوروبية ذروتها مع نهاية القرن السابع عشر الميلادي بسبب انشغال الدولة العثمانية بحروبها الخارجية[١].

وفي مطلع القرن الثامن عشر الميلادي أصبحت البحرية الطرابلسية في وضع أقوى من ذي قبل واستطاعَتْ أن تتصدى لقرصنة الأوروبيين، لكنها مع مرور الوقت أخذتْ في التدهور مرة أخرى، بسبب الفُرقَةِ والخلاف المستمر بين الولاة، وعدم وقوف الولايات العثمانية يَدًا واحدةً ضد عدوِّهم، مما أتاح الفرصة للقراصنة الأوروبيين أن يهاجموا سفنهم في البحر المتوسط، الأمر الذي أثر سلبًا على تجارتها الخارجية[٢].

---

(١) المبروك محمود صالح، "القرصنة البحرية في البحر المتوسط خلال عهد الأسرة القرمانلية (ولاية طرابلس الغرب ١٧١١–١٨٣٥م)، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية– العدد الثاني والثمانون–يوليو ٢٠١٠م، ص ص ٢٦٥، ٢٦٦؛ محمد الهادي أبو عجيلة، النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية ١٧١١–١٨٣٥م وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ١٩٩٧م، ص ٨٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦٧.

والحقيقة إنَّ مسألة الاعتداء على السفن التجارية كانت من أولَوِيات الدولة العثمانية وإيالة طرابلس على حدٍ سواءٍ؛ لدرءِ خطرِ القراصنة، فعملتِ الدولة العثمانية من بداية القرن الثامن عشر على تعيين سفينتين حربيتين تابعتين لأسطولها لحماية سفنها وسفن الولايات العثمانية التجارية من السفن المتعدية عليها، وكانت العادة أن تخرج السفن التجارية التي يملكها التجار من رعايا الدولة العثمانية على شكل قوافل في أوقات تزايد الخطر، وذلك لتسهيل حمايتها والدفاع عنها من قبل السفن العثمانية، أما السفن التي تخرج منفردة في مثل هذه الأحوال، فإن مسؤولية تأمين سلامتها تقع على عاتق طاقمها، أما مَن تُصاب سفينته وهي ضمن قافلة تحرسها السفن العثمانية، فكان صاحبها يُعوض من مال خزينة الدولة العثمانية[١].

كما كان على التجار حماية أنفسهم وبضائعهم بحمل بعض الأسلحة لمواجهة الهجمات المفاجئة، أو تقليل المخاطر التي تنتظرهم بتوزيع بضائعهم على مجموعة من السفن، فإن أصيبتْ واحدة نجت السفن الباقية، وحرص بعض التجار المحليين على أن تُشحَن بَضَائِعُهم على متن السفن الأجنبية؛ لأنها كانت أكثر تسليحًا من السفن الإسلامية، فضلاً عن قلة اعتداء القراصنة الأوروبيين عليها باعتبارها سفن نصرانية صديقة لهم تعاونهم في القضاء على التجارة الإسلامية[٢].

هذا كما عملتِ الدولة العثمانية على حماية موانئ الولايات العثمانية التابعة لها في حوض البحر المتوسط، وتَتَـبُّعِ حركة السفن الأوروبية، وكانت بين الفيْنَةِ والأخرى تهاجم هذه السفن لتقليل خطرها، كذلك تقوم بتشجيع ولاة وتجار الولايات المغاربية، وتنبيههم في الموانئ عند تزايد خطر القرصنة في البحر، مثلما حدث في سنة ١٧١٧م التي شهدت أعنف هجوم للقراصنة على السفن العثمانية في البحر المتوسط من الإسكندرية حتى الولايات الواقعة على شواطئه، فأصدر الديوان العالي بمصر أمرًا إلى

---

(١) المبروك محمود صالح، القرصنة البحرية في البحر المتوسط خلال عهد الأسرة القرمانلية، ص ٢٧٠.

(٢) سامح إبراهيم عبدالفتاح، العلاقات التجارية بين مصر وولايات المغرب العثمانية في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس ٢٠١٠م، ص ٣٣٠.

جميع التجار يؤكد عليهم "وجود مراكب قرصان مختلفة الأجناس لا تُحصى من كثرتها"، ونبه هذا الأمر على أن القراصنة يقومون بأسر كل السفن التي تقابلهم، وحذر التجار وقادة السفن من الإبحار خوفًا عليهم من الخطر في ذلك الوقت[١].

وبناءً على ذلك انتهجت إيالة طرابلس أسلوبَ الجهاد ضد السفن الأوروبية المعتدية، ثم شهد الموقف المغاربي في أواخر القرن شكلاً من أشكال التحالف المشترك؛ فعقد حكام الولايات المغاربية معاهدة صداقة وتضامن على الدفاع ضد القرصنة في البحر المتوسط. ففي سنة ١٧٨٣م انضم لها سلطان دولة المغرب الأقصى بمساعي حميمة من والي إيالة طرابلس الغرب، وبذلك توحد الصف المغاربي لتأمين الإبحار في المتوسط، وبرغم تلك الإجراءات لم تتوقف عمليات القرصنة ضد السفن التجارية المغاربية خاصة الطرابلسية، وكان قراصنة مالطا – فرسان القديس يوحنا، كما يسمون أنفسهم– أشد المجموعات الأوروبية خطرًا على تلك السفن، حيث مارسوا ما يشبه حرب العصابات في البحر المتوسط، ونجحوا في الاستيلاء على العديد من السفن التجارية بما عليها من بضائع وتجار وربابنة كانوا على مَتْنِهَا[٢].

إذا دققنا النظر في هذا العنصر فإننا نلاحظ أن مصادر استرقاق هؤلاء الأسرى كان يتم من خلال الاستيلاء على سفن ومراكب العديد من الدول الأوروبية فكان الركاب والبحارة والقباطنة هدفًا للأسر. ففي سنة ١٥٨٦م استولى البحارة الطرابلسيون على سفينة إنجليزية قرب جبل طارق، واقتيد جميع ركابها أسرى إلى طرابلس. كما استولى البحارة الطرابلسيون على ثلاثة مراكب تجارية، أخذوا طاقمها أسرى واقتادوهم إلى طرابلس أيضًا، وهم مزهوون بالنصر، وذلك في سنة ١٦١٩م. كذلك نجحوا في الاستيلاء على خمسة عشر مركبًا أوروبيًّا، فضلاً عن أَسْرِهم للْعَديدِ من السفن والمراكب

---

(١) المبروك محمود صالح، عوامل ازدهار وتدهور تجارة الحبوب في إيالة طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي (١٧١١-١٨٣٥)، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية- العدد الثاني والثمانون-أكتوبر ٢٠١٢م، ص ص ١٢، ١٣.

(٢) سامح إبراهيم عبد الفتاح، المرجع السابق، ص ٣٣١.

الفرنسية وبحارتها، حيث بلغ عدد أَسْرَاهُمْ مئتين وخمسين أسيرًا فرنسيًّا في سنة ١٦٣١م[١].

شهد عام ١٦٣٥م زيادة في أعداد الأسرى الأوروبيين، نظرًا لتفوق المراكب الطرابلسية على المراكب الأوروبية، حيث تراوحت أعدادهم ما بين أربعمائة إلى خمسمائة أسيرٍ. كذلك شهدت سنتا ١٦٤٠-١٦٤١م زيادة في أعداد أولئك الأسرى الأوروبيين أيضًا، نتيجة لتحسن أنواع المراكب البحرية الطرابلسية، وفي هذا الصدد نجد أن عدد الأسرى في هذين العامين قرابة أربعمائة وخمسين أسيرًا أوروبيًّا[٢].

وفي عهد الوالي محمد باشا الساقزلي (١٦٣٣-١٦٤٩م) بلغ معدل الأسرى الأوروبيين سنويًّا ستمائة وخمسين أسيرًا سنويًّا، ووصل جملة الأسرى أربعة آلاف أسير طوال سنوات حكمه، ومات هذا الوالي مسمومًا على يد أحد الأسرى الأوروبيين الذي كان يمتهن الطب، ويُدْعى "اورستي"، وأُطِلقَ سراح الطبيب بتأثير من أحد القادة المدعو "محمود"، وقد عاد ذلك الطبيب إلى جزيرة صقلية، فحكم عليه سلطان الجزيرة بالإعدام عقابًا لهُ على قتله للوالي محمد الباشا الذي كان يرتبط بعلاقات ودية وتجارية مع سلطات الجزيرة[٣].

كما أظهرت سنة ١٦٧٢م امتلاء حمامات طرابلس بالأسرى الأوروبيين، حتى وصلوا إلى ٦٠٠٠ أسير خلال فترة حكم عثمان باشا الساقزلي (١٦٤٩-١٦٧٢م)، ولم يبقَ منهم عند موته سوى ١٥٦٠ أسير من مختلف دول أوروبا، وكان من بينهم ٦٠٠

---

(١) كوستانزيو برنيا، طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠، تعريب: خليفة محمد التليسي، طرابلس: الناشر الفرجاني، ١٩٦٩م، ص ١١٩؛ إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١، ترجمة وتقديم: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ١٩٦٨م، ص ص ٢٣٧، ٢٦٧.

(٢) خليفة محمد التليسى، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ليبيا – تونس: الدار العربية، ١٩٨٥م، ص ٨٧؛ كاميلو مانفروني، العلاقات البحرية بين ليبيا وإيطاليا/ تاريخ البحرية الليبية، تعريب: إبراهيم أحمد المهدوي، مراجعة: أحمد اليماني، منشورات جامعة قار يونس د.ت، ص ص ٨١، ٨٢؛ كوستانزيو برنيا، المرجع نفسه، ص ص ١٥٧، ١٥٨.

(٣) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ١٧٠، ١٧١، ١٧٢.

أسيرٍ فرنسي. وحكم عثمان باشا الساقزلي ثلاثًا وعشرين سنة حيث بلغ معدل أعداد الأسرى سنويًّا ما بين ألف وخمسمائة إلى أَلفي أسير، إضافة إلى الاستيلاء على مائة وأربعةِ مراكبَ خلال عهده أيضًا، إلى جانب الأموال الكثيرة التي قُدرت بالملايين[١].

ومن المعلوم أن القوة البحرية الطرابلسية استطاعت أَسْرَ ٢٤٥٠ أوروبيًّا في الفترة من ١٦٦٨ إلى ١٦٧٨م ، والاستيلاء على مائة وأربعة مْراكب أوروبية، كان من بينها ثلاثة وثلاثون مركبًا فرنسيًّا، وقُدِّرَ ثمن البضائع التي تم الحصول عليها بعدَّة ملايين. وبعد ذلك بعامين بلغ عَدَدُ الأسرى في حمامات طرابلس حوالي ثمانمائة أسير فرنسي[٢].

وفي ٢٢ من مايو سنة ١٦٩٢م استولى البحارة الطرابلسيون على إحدى عشرة سفينة تجارية، فضلاً عن أَسْرِ مائتين وخمسة عشر أوروبيًّا. أما في سنة ١٧٨٦م فقد بلغ عدد الأسرى الإيطاليين في حمامات طرابلس مائة أسير، كما وقع في الأسر عددٌ من المراكب والأفراد التابعين لحكومتي السويد والدانمارك، فضلا عن أَسْرَ ٦٠٠ سردِيني سنة ١٧٩٨م[٣].

وشهد عام ١٨١٥م زيادة في الأعمال الجهادية ضد السفن الأوروبية مثل: هولندا والدانمارك وإيطاليا؛ لتأخرها عن دفع المبالغ المنصوص عليها في معاهدات الصلح المعقودة مع كل منها، وقد بلغ عدد السفن الدنماركية المأسورة ستة محملة ببضائع بلغت قيمتها ما يساوي ٥٠٠.٠٠٠ قرش. كما تم أسر ما لا يقل عن ١٥٠٠ إيطالي في العام نفسه، وسُجنوا داخل حمامات طرابلس[٤].

---

(١) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ١٩١، ٢٠٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ١٩٤، ١٩٥؛ شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تعريب: محمد عبدالكريم الوافي، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٩٨٣م، ص ٢٥٣.

(٣) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٣٠٢؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٤٧؛ كولافو لايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القره مانلي، منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ١٩٨٨م، ص ٤٨؛ كاميللو مانغروني، المرجع السابق، ص ص ١١٧، ١١٨.

(٤) رود لفوميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، نقله للغة العربية: طه فوزي، طرابلس – ليبيا، دار الفرجاني، (د.ت)، ص ص ١٧٢، ١٧٣.

كذلك أثمرت جهود البحرية الطرابلسية أسر ١٢٣ أسيرًا من صقلية ونابولي و٦٢ أسيرًا من جِنْوَا وذلك في سنة ١٨٠٩م. أضف إلى ذلك تم الاستيلاء على سفينة تجارية إنجليزية وطاقمها؛ تحمل كمية من الملح قدرها ثلاثمائة طن، كما تم الاستيلاء على سفن إيطالية. وقد بلغ عدد الأسرى الإيطاليين وحدهم ألفًا وخمسمائة أسير خلال سنة ١٨١٥م[١].

كما تم الاستيلاء على سفينة من صقلية تحمل قمحًا بالقرب من الشواطئ الطرابلسية سنة ١٨١٨م، وتم بيع الحمولة بمبلغٍ قَدْرُه أربعمائة وخمسين ألف ريال. وفي عام ١٨٢٦م تم الاستيلاء على ثلاث سفن تحْمِل العَلَمَ البابوي[٢].

ثانيًا: الأسرى الأوروبيين في طرابلس الغرب ودورهم فى المجتمع فى الفترة ١٥٥١-١٨٣٢:

نركز في هذا العنصر على دور الأسرى الأوروبيين في بعض مجالات الحياة المختلفة بطرابلس، حيث كان منهم الْفَلاَّحُ والنَّجَّارُ والْحَدَّادُ والْبَنَّاءُ والطَّبِيبُ. فكانت الإنشاءات التي بنوها- في معظمها- نقلة جديدة في فن المعمار الديني، و التي استمدت طابعها العام من فن البلاد التركية التي انتعشت فيها العمارة الدينية انتعاشًا عظيمًا منذ ظهور الدولة العثمانية فيها. وهو ما سنتناوله فيما يلي:

١- دور الأسرى الأوروبيين في النشاط العمراني:

إذا أَلقينا نظرة على الأثر الذي تركه هؤلاء الأسرى بطرابلس، فإننا نلمس دورهم في بناء الكثير من المساجد والحصون والمساكن والقلاع، والفنادق ممَّا أَضْفَى على البلاد نقلة نوعية جديدة قفزت بالفن المعماري نحو التطور؛ لذلك لا غرابة في أن نجد بعض الولاة

---

(١) كولا فولايان، المرجع السابق، ص ص ٩٥، ٩٧، ٩٩؛ عبدالله خليفة الخباط، العلاقة السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا ١٧٩٥-١٨٣٢م، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٩٨٥م، ص ١١٠؛ محمد الهادي أبوعجيله، المرجع السابق، ص ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) عبدالله خليفة الخباط، المرجع السابق، ص ١٢٠؛ كوستانزيونيا، المرجع السابق، ص ٣٠٨.

العثمانيين في أثناء رباطهم لمواجهة قراصنة القديس يوحنا، قاموا ببناء المساجد؛ ففي سنة ١٥٥٢م أنشأ مراد آغا (١٥٥١-١٥٥٦م) مسجدًا عند مرابطته بقواته في منطقة تاجوراء بطرابلس، مستعينًا في بنائه بسواعد الأسرى الأوروبيين والذين بلغ عددهم ثلاثمائة أسير مستخدمين في بنائه أحجارًا استُجلِبت من آثار مدينة (لبدة) القديمة، مقابل ذلك وعدهم مراد آغا بإطلاق سراحهم حين إتمام بناء المسجد، وبالفعل أوفى الآغا بوعده وأحسن إليهم وأعاد إليهم حريتهم، وقام بتسفيرهم إلى بلدانهم الأوروبية[١].

وتكْمُنُ قيمة هذا المسجد في كونه أثرًا معماريًّا، كما يعدُ دليلاً على مدى الدور الذي لعبه هؤلاء الأسرى في بناء المساجد. وفي هذا الصدد ذكر "كوستا نزيو برنيا" أن مراد آغا كان تحت تصرفه في الفترة السالفة الذكر قرابة أربعمائة أسير أوروبي[٢].

إضافة إلى إنشائهم مسجدًا آخر خلال فترة حكم درغوث باشا (١٥٥٣-١٥٦٥م) والذي عُرف باسمه وضم رفاته ، وذلك في سنة ١٥٥٤م. وفي هذا السياق أكد "التليسي" أن أولئك الأسرى الأوروبيين هم من الذين قاموا ببنائه، ولاسيما الأسرى اليونانيون الذين كان لهم الفضل الكبير في إتمامه، فقد تميزوا بالمهارة والإتقان في فن إنشاء المنازل الجميلة المترفة[٣].

ليس هذا فحسب؛ بل إنَّهم بنوا قصرًا خاصًّا لدرغوث باشا، كذلك تم الاعتماد عليهم في إقامة بعض المنازل وإنشاء بعض البسَاتين في ضاحية عُرفت باسم (البازار)، كما بنوا مسجدًا صغيرًا في عهد الداي مصطفى البهلوان سنة ١٥٧٥م[٤].

---

(١) سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات: زليتن القيادة الشعبية الاجتماعية (د.ت)، ص ١٤٨؛ خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ٧٧؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١١٨.

(٢) نجم الدين غالب الكيب، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ليبيا – تونس، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٧٨م، ص ٥٧؛ كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٨٠.

(٣) إتوري روسي، المرجع السابق ص ٢٨٧؛ نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص ٦١. خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ص٧٨، ٧٩؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٤) خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ص ٩٢، ٩٣.

وكان لهم أثر – كذلك – خلال فترة حكم جعفر باشا (١٥٧٥-١٥٨٠م)، حيث قاموا بترميم باب المنشية المؤدي لخارج المدينة وذلك سنة ١٥٨٠م، وقد أكد "كوستانزيو برنيا" أن تلك الإنشاءات قام بها هؤلاء الأسرى المهرة والفنانون والنقاشون خاصة من الأسرى الإيطاليين[١].

أما فيما يخص دورهم خلال فترة حكم رمضان باشا (١٥٨٠-١٥٨٤م)، فقد استعان بهم في تشييد مسجد. هذا وقد كان داي صفر (١٦٠٢-١٦١٥م) أول من قام بإنشاء حمامٍ للأسرى عُرِف بالحمام القديم[*] سنة ١٦١٢م، قرب قصر درغوث باشا، واستوعب حوالي سبعمائة أسير أوروبي. كما عَرفَهُ الأسرى الأوروبيون أيضًا باسم (مَدونَّا دل روزاريو)، بالإضافة إلى ترميم وإصلاح جامع الناقة[**] وإصلاح باب البحر. فضلاً عما قاموا به خلال حكم شريف داى (١٦٢٤-١٦٣٠م) من تطوير تحصينات القلعة وترميم حصن المنارة وإصلاحه في الفترة ما بين سنتي (١٦٢٧-١٦٢٨م)[٢].

كما ساهموا في تنشيط الحركة العُمرانية في طرابلس خلال عهد محمد باشا الساقزلي (١٦٣٣-١٦٤٩م) حيث استعان بهم هذا الوالي في تجميل المدينة وبناء المنازل في بساتين المنشية، ومن الإنشاءات التي تمت في عهده إقامته حمامًا جديدًا لإيواء الأسرى عُرِف باسم (حمام القديس أنطوان) سنة ١٦٣٣م، استوعب قرابة أربعمائة وخمسين أسيرًا، ولم ينتهوا من بنائه بكامله إلا في سنة ١٦٤٠م. كما أسسوا حمامًا آخر

---

(١) خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ٨١؛ كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٩٣.

(*) **الحمام:** هو السجن الذي يقيم فيه الأسرى الأور وبيين؛ سمي بالحمام لأنه خالي من النوافذ ولا يدخل إليه الهواء ولا النور والمعروف من هذه الحمامات هو الموجود حتى اليوم تحت ميدان الكنيسة القديمة قرب باب البحر. للمزيد ينظر: كاميللو مانغروني، المرجع السابق، ص ٦٧.

(**) يعُد جامع الناقة أقدم أثر ديني احتفظ به التاريخ بمدينة طرابلس ويعود عهد بنائه إلى بداية قيام الدولة الفاطمية بمصر. للمزيد ينظر: نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص ٥٥.

(٢) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٩٥؛ خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ٨٤.

عُرِفَ باسم (حمام الفخ) في إحدى بساتين المنشية، فضلاً عن تشييدهم حمامًا صغيرًا داخل القلعة يعرف باسم "حمام القلعة" [١].

كذلك كان لهم الأثر الواضح في بناء العديد من الفنادق. ففي سنة ١٦٥٤م أنْشَأ الأسرى –خلال عهد عثمان باشا الساقزلي– (الفندق الأول) في شارع البازار. أما الفندق الجديد فقد تم إقامته خلال حكم سليمان كاهية عام ١٦٧١م بالقرب من مسجد درغوث[٢].

وخلال سنتي (١٦٩٨–١٦٩٩م) خلَّفوا أثرًا معماريًّا متمثلاً في مسجد تم إنشاؤه بسوق الترك، كما جددوا سوقي الترك والحرير. كذلك قاموا بترميم أسوار المدينة في سنة ١٧٢٩م، واستخدمهم أحمد باشا القرمانلي أيضًا في بناء جامعه الذي عُدَّ من أكبر جوامع مدينة طرابلس وأفخمها، وألحق بالجامع مدرسة ومقبرة ومرافق حياتية أخرى[٣].

أما في سنة ١٧٨٣م فقد شيد الأسرى المالطيون شرفات قصر الأسرة القرمانلية الحاكمة بالقرميد الصيني. فضلاً عن اعتماد الطرابلسيين على خبراتهم في صناعة السفن، فكان أكثر من يتقن هذه الحرفة هم الأسرى النابوليونيين والأمريكيين خلال الفترة ما بين سنة ١٨٠٣ و١٨٠٥م[٤].

---

(١) خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ص ٨٧، ٩٨؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١٧٦؛ كوستانزيوبرنيا، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٢) خليفة محمد التليسي، المرجع نفسه، ص ٩٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٠٤؛ شارل فرو، المرجع السابق، ص ٣٩٥؛ نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص ص ٦١، ٦٤؛ سعيد علي حامد، مساجد طرابلس القديمة، مجلة تراث الشعب، السنة الحادية عشرة، العدد الأول ١٩٩١م، ص ٦٧.

(٤) عبدالرازق أحمد النصيري، "الجالية المالطية في طرابلس الغرب ودورها الاقتصادي في العهد العثماني"، مجلة البحوث التاريخية، السنة الحادية والثلاثون – العدد الأول – يناير ٢٠٠٩م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس، ص ص ٩٩، ١٧٧، ١٠٥؛ خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ١٣٣؛ كولا فولايان، المرجع السابق، ص ٥٠.

٢- دور الأسرى الأوروبيين في المجال العسكري:

نتناول في هذا العنصر دور الأسرى الأوروبيين في المجال العسكري من خلال جهودهم التي قاموا بها لرفع مستوى هذا المجال. وفي هذا الصدد بعد أن تم طرْدُ فرسان مالطا عن طرابلس سنة ١٥٥١م كان مراد آغا قد أخذ بزمام المبادرة في وضع اللمسات العُمرانية الأولى في منطقة تاجوراء عندما أسس فيها حصنًا صغيرًا هو بمثابة مركز أمامي متقدم فيما بينها وبين طرابلس. كما حفر بئرًا للسابلة على الطريق المؤدية إلى طرابلس. وكانت كل تلك الجهود العمرانية ترجع إلى ما قام به الأسرى الأوروبيون[١].

ساهم هؤلاء الأسرى أيضًا في إنشاء برجٍ خلال فترة حكم درغوث باشا عرف باسمه. وبرجٍ آخر عرف باسم "برج التراب" في مرتفع القبَّة، ولحسن أدائهم سمح لهم الباشا بإنشاء مقبرة خاصة بهم، والتي عُدَّتْ أول مقبرة مسيحية في طرابلس[٢].

وفي شهر ديسمبر ١٥٥٦م ترك درغوث باشا مجموعة كبيرة من الأسرى الأوروبيين مع جنوده لحماية قلعته أثناء حربه على الحدود التونسية بلغ عددهم ثلاثة آلاف أسير، استخدمهم في أعمال التحصينات والأعمال الحربية: كالتجديف وغير ذلك من الأعمال البحرية. كما شيد هؤلاء الأسرى حِصنًا عرف باسم درغوث باشا، ثم عرف باسم "قصبة طرابلس"[٣].

ونظرًا لِدرَاية بعضهم بالأعمال البحرية، فقد أدخلهُم صفر داي (١٦٠٢-١٦١٥م) في جيشه خاصةً في القوة البحرية، هذا بالإضافة إلى إتقانهم لأعمال لا غنى عنها في البحر. كما شهد عام ١٦٣٨م إلْحَاق ثلاثمائة أسير أوروبي بالحملة البحرية ضد مدينة بنغازي لمحاربة مجموعة تونسية أرادت الاستقرار في المدينة. كما استفاد منهم الداي في السنة التالية لبناء قلعة في بنغازي كمقر لحكمه. وقد أكد "شارل فيرو"

---

(١) نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص ص ٩٢، ٩٣.

(٢) إتوري روسي، المرجع السابق ص ٢٨٧؛ نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص ٦١؛ خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ص ٧٧، ٧٨، ٩٤.

(٣) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ص ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٩؛ المبروك محمود صالح، "القرصنة البحرية في البحر المتوسط خلال عهد الأسرة القرمانلية، ص ٢٧١؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١٢٣.

أن الداي اعتمد على الأسرى المهرة في تلك الأعمال[١]. ومن التحسينات التي أدخلها الأسرى الأوروبيون على صناعة السفن في البحرية الطرابلسية؛ المراكب ذات الشراع المربع، كما أبدعوا في صناعة زوارق خفيفة وسريعة، مما زاد من قدرة القوة البحرية الطرابلسية [٢].

وفي سنة ١٦٤٠م ضم محمد باشا الساقزلي (١٦٣٣-١٦٤٩م) خمسين أسيرًا أوروبيًّا إلى جيشه البحري ليشاركوا مع قُواتِهِ في المعارك البحرية. وفي هذا العام أَسَرَ محمد باشا الساقزلي العديد من الأوروبيين، وكان من بينهم شخص يدعى "بيترو بلنج" وهو خبير في صناعة السفن فبنى له مركبين، فضلاً عن استخدام الباقين على حسب احتياجاته: كالجّراحين وصُنَّاع السفن والعناصر المخصصة لإدارة الأشرعة وعمليات الرُّسوّ والإقلاع[٣].

أما في سنة ١٦٤٢م فقد أنشأ الأسرى برجًا عسكريًّا بالقرب من مدينة زوارة ، حيث خُصِّص لمقر حامية عسكرية تكّونت أفرادها من أربعين جنديًّا عثمانيًّا، تحت قيادة ضابط "بلوك باشي"، ويعزو "كوستا نزيو برنيا" بناء هذا البرج لحماية تجارة الملح التي تعرضت لمضايقات البدو[٤]. كما كان لهم أثر كبير خلال حكم عثمان باشا الساقزلي (١٦٤٩-١٦٧٢م) في ترميم وبناء التحصينات الدفاعية للبحرية. وخلال سنة ١٦٦٩م نقل عثمان باشا ثلاثمائة أسير أوروبي إلى بلدة (ككلة) لترميم قلعتها. أما في سنة ١٦٧٣م فقد جمعوا الملح من ملاحات زوارة، وقاموا أيضًا ببناء تحصينات، استمروا في بنائها مدة ثلاثة أشهر في طرابلس[٥]. هذا وقد استخدمهم أحمد باشا القرمانلي في الفترات الأولى لحكمه في إنشاء و تحسين التحصينات الدفاعية وتجْديدها، كما قام

---

(١) الهادي مصطفى بولقمة، دراسات ليبية، بنغازي، مكتبة قورينا للنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٧٥م، ص ٦٠؛ كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ١٥٣، ١٤٨؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١٧٩.

(٢) ن.إ. بروشين، المرجع السابق، ص ٩٠.

(٣) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٤) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ١٤٨، ١٥٨.

(٥) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ٢٠٣، ٢١٠؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ص ٢٨٨، ٣٠٤.

بترميم (برج المندريك)، وإنشاء برجٍ جديد آخر، وهو المعروف باسم برج أبي ليلي أو البرج الفرنساوى (برج الفرنسيس)[١].

ومما يلفت الانتباه هنا أن أحمد باشا القرمانلي استغل خمسمائة أسير أوروبي ليعملوا بقواته المعروفة باسم "الأعلاج"(*)، فأُسْنِدتْ لهم قيادة المراكب الحربية، ومنهم "مراد باي" و"عمورة باي"، وهذا العمل لم يرضِ فرنسا التي أبرمتْ اتفاقية مع طرابلس بتاريخ ٣٠ مايو ١٧٥٢م، فرضت على أثرها على محمد باشا القرمانلي (١٧٤٥-١٧٥٤م) أن يعفى "عمورة باي" من قيادة الأسطول، وتم عزله بناءً على ذلك، وبعد وفاة محمد باشا تولى ابنه علي باشا القرمانلي (١٧٥٤-١٧٩٣م) الذي أمر بإعادته وتعيينه على رأس الأسطول الطرابلسى مرة أخرى. كما أرجع علي باشا "مراد باي" ليكون قائدًا عامًّا للأسطول إلى جانب مجموعة الأسرى الأوروبيين الذين اعتنقوا الإسلام وعملوا في البحرية الطرابلسية، لأن مراد باي اتصف بالشجاعة الفائقة واستمر في نشاطه حتى سنة ١٧٦١م[٢].

وفيما بين سنتي ١٨١٧ و١٨١٨ كُرِّس هؤلاء الأسرى جهودهم في تشييد الدفاعات البحرية لتدعيم تحصينات المرسَى. كذلك بنوا أيضًا حائط السور الذي يمتد

---

(١) خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ١١٠.

(*) **الأعلاج:** اطلق هذا اللقب على (الأوروبيين المسلمين) كالرياس وقادة البحر والحكام الذين حكموا طرابلس من أصل أوروبي حتى عرفت تلك الحقبة بفترة حكم الأعلاج الذين كثفوا من نشاطهم ضد السفن الأوروبية. وهذه الكلمة تعني أيضاً مارق ومرتد عن الدين. للمزيد ينظر: الهادي مصطفى بولقمة، الساحل الليبي، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، ط١، ١٩٩٧م، ص ص ٥٥، ٥٦، ٧٣؛ سهيل إدريس، المنهل، قاموس فرنسي – عربي، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤م ص ١٠٤٦.

(٢) جون وولف، رياس البحر، ترجمة: أبي القاسم سعد الله، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد الثالث، لسنة ١٩٨٧م، ص ٣١٨ ؛ رتيشارد توللي، عشرة أعوام في طرابلس ١٧٨٣-١٧٩٣، ترجمة: عبدالجليل الطاهر، (منشورات الجامعة الليبية: دار ليبيا للنشر والتوزيع بنغازي ١٩٦٧م)، ص ١٣٧؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٦٥؛ خليفة محمد الأحول، بحوث ومقالات في مصادر تاريخ ليبيا الحديث، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٧م، ص ص ٢٧، ٦٢.

من القصر الحكومي من جهة البحر إلى دائرة الجمرك، فضلاً عن إنشائهم لعدةِ أبراجٍ في بعض المواقع من السور وفي نقاط كثيرة خارج مدينة طرابلس[١].

ولما شعر يوسف باشا (١٧٩٥-١٨٣٢م) بالخطر الذي يتهدده من الدول الأوروبية استغل الأسرى في تحصين القلاع والأبراج، وبدأ في سنة ١٨١٧م تأسيس (البرج الجديد) بالقرب من برج المندريك الذي احتفل بتدشينه في أوائل سنة ١٨٢٠م[٢]. كما استغل يوسف باشا العديد من الأسرى الأوروبيين في تسيير السفن في أعماق البحر وتحريك المجاديف لدفع السفن. كما أنه أدخل الذين اعتنقوا الإسلام منهم في فرقة نظامية خاصة عرفت باسم (الشاوشية) وكانت مهمتها الحفاظ على الأمن في القصر والمدينة[٣]. ولما لم يعد هناك أسرى أوروبيون لأداء مختلف الأعمال فى سنة ١٨٢٤م استعان الباشا بالقنصل الإنجليزي "وارنجتون" كي يُحضر له عددًا من عُمال مالطا المتخصصين في بناء السفن ليبنوا له فرقاطة حربية مزودة بستة وثلاثين مدفعًا[٤].

٣- دور الأسرى الأوروبيين في بعض الأنشطة الأخرى:

لقد كان معروفًا في طرابلس أنه مع وصول السفينة التي تحمل أعدادًا من الأسرى، يَجْرِي تسجيلهم فردًا فردًا بحضور الباشا وتُدرَج أسماؤهم في قائمةٍ مع تحديد هويتهم وتوفير إقامتهم. وكان نصيب الباشا من الأسرى الجدد مقدرًا بالثُمن. ومن ثم يقوم الباشا بتوزيعهم للعمل في القصر، حيث يعملون في المكاتب والمطابخ ومخازن القصر، وهناك أيضًا حرس الباشا الخاص والقائمون على نظافة القصر وغير ذلك من أعمال، وهؤلاء عادة يتمتعون بمستوى معيشي جيد. كذلك اشتغل العديد من الأسرى الأوروبيين

---

(١) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ٥٥٩، ٥٦٠ ؛ نجم الدين غالب الكيب، المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢) خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ١٤٨.

(٣) مصطفى عبدالله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي – الإسكندرية، ١٩٥٣م، ص ص ١٣٢، ١٣٨؛ ن.إ. بروشين، المرجع السابق، ص ١٦٩.

(٤) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٥٦٤.

كموظفين لدى الوالي خلال القرن السابع عشر، فكانوا كُتَّابًا كُلفوا بتحرير المراسلات إلى الدول الأوروبية وتجارها[١].

أمّا فيما يتعلق بعمل الأسرى الذين اشتراهم الأغنياء فقد كانوا يقومون بأعمال البستنة والأمور المنزلية المتنوعة (الطبخ – الغسيل ...الخ)، حيث كانت البيوت في طرابلس على اختلاف مراكزها الاجتماعية تعج بالأسرى رجالاً ونساءً[٢]. أمّا بالنسبة للأعمال التي يقوم بها بقية الأسرى، فقد مارسوا العمل في الموانئ والمعامل البحرية وكخدم داخل القنصليات وفي المزارع وفي منازل الأغنياء، وقد كانت فترة الأعمال اليومية؛ تبدأ في الساعات الأُوَلى من الصباح وتنتهي عند الساعة الرابعة في فصل الشتاء، أما في الصيف فتنتهي عند الخامسة، فإذا أتمُّوا عملهم جاز لهم استخدام الوقت الباقي في كسب ما يمكنهم من الحصول على مزيد من الغذاء[٣].

وكانوا يسيرون في صفوف منتظمة تحت الحراسة متجهين إلى العمل ويتم استخدام كل صانع في الحرفة التي يتقنها. فكان الأسرى الأوروبيون الذين لا يحسنون صناعة أي حرف متخصصة يرحلون إلى منطقة قرقارش وهنشير لتجميع الصخور وتكسيرها، ويُعد هذا العمل من أصعب الأعمال التي قام بها الأسرى، إضافةً إلى أن قرقارش تبعد حوالي ميل عن المدينة، فكانوا يقطعون هذه المسافة سيرًا على الأقدام صباحًا ومساءً. كما اشتغل البعض الآخر منهم في أعمال الأفران الجيرية، والبناء، وغرس البساتين، وفلاحة الأرض، وقطع الخشب، واستخراج الماء، وتفريغ المجاري، وغير ذلك من الأعمال المشابهة، كما كانوا يقومون بشحن مراكب البحارة بالمياه والإمدادات والتموين في أثناء استعدادها لعمليات الجهاد البحري[٤].

---

(١) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ١٦٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢١٨؛ خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢١٦.

(٤) خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ٩٩؛ كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٢١٧ ؛
Charlesworth (M.P); the Roman Empire London, 1961, p . 72.

أشار المستشرق كوستانزيو برنيا إلى أن أوقات الراحة لهؤلاء الأسرى كانت تبدأ عند قدوم الليل، حيث كانوا يتجمعون في حجرات كبيرة محجوبة عن النور والهواء وذات حرارة خانقة لا تطاق، ومما زاد تلك الأوضاع سوءًا التدخين والغازات المنبعثة من المصابيح وأنين المرضى والشجار الذي ينشب أحيانًا بين الأسرى، وفي الوقت الذي لم يكن هناك ما يبعث على الأمل في قِصَرِ مدى ذلك الأسر، فقد بقى بعضهم مقيدًا بالسلاسل فترات طويلة لعدم وجود من يعمل على تحريرهم، ما دفع الكثيرين منهم للتخلي عن دينهم وأمل الرجوع إلى أوطانهم وذلك بدخولهم في الدين الإسلامي، آملين في فك أسرهم وبلوغهم أرفع المناصب في الإيالة وإلى حياة كريمة، فضلاً عن ذلك فقد كان للرجال الذين يشتغلون في البحر مكانة ممتازة في مناصب الدولة[١].

كما كانت تُقدَّم لهم وجبة يومية تتألفُ من نصف كيلو خبز شعير وحساء القمح. وقد حظى الأسرى الأوروبيون الذين يَمْتَهِنوُنَ حرفًا أخرى بمبالغ إضافية تمكنهم من الحصول على شراء طعام وافر يشاركهم فيه – غالبًا – زملاؤهم من المرضى والمُرْهَقِين. أما الأسرى الأوروبيون الذين يتصفون بالتميز والمعروفون بتوليهم المناصب الكبيرة في بلدانهم، فقد اعفوا من القيام بأي عمل من الأعمال المقررة على الأسرى العاديين ولاسيما في عهد الوالي محمد باشا الساقزلي (١٦٣٣-١٦٤٩م)[٢].

وخلال عام ١٦٧٢م اسْتُغِلَّتْ منطقة قرقارش لإقامة الأسرى الذين عملوا كمزارعين، إضافة إلى من اشتغلوا ببناء البيوت من الصخور. ناهيك عن أن كهوف قرقارش كانت ملجأ لهؤلاء الأسرى عند هطول الأمطار وسجنًا لهم كلما بدت في الأفق سفينة أوروبية تحاول تحريرهم[٣]. واشتغل قرابة ثمانمائة أسير فرنسي على ظهر السفن والمراكب الطرابلسية كمجدفين في سنة ١٦٧٧م[٤].

---

(١) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٢١٨؛ خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ٨٦.

(٢) خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ص ٨٧، ٩٨؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١٧٦؛ كوستانزيوبرنيا، المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٣) خليفة محمد التليسي، المرجع نفسه، ص ٩٨؛ كوستا نزيو برنيا، المرجع نفسه، ص ٢١٧.

(٤) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ١٩٦، ٢٣٨.

ومما يجدر ذكره هنا أنَّ الكثير من هؤلاء الأسرى الأوروبيين اعتنقوا الدين الإسلامي، فتم عتقهم وشاركوا في جميع الأعمال المدنية، إضافةً إلى توكيلهم أحيانًا بقيادة السفن والاشتراك مع البحارة الطرابلسيين في عمليات الجهاد البحري، كذلك نالوا مناصب مهمةً في الحكومة والمؤسسات الإدارية، وتقلَّدَ الكثير منهم رتبة ضابط، ذلك لأنهم تميزوا بالذكاء والخبرة، ولكن "كوستا نزيو برنيا" يرى أن ذلك الموقف قد أثار تذمرًا في أوساط الطرابلسيين؛ لأنهم ظلوا يعدونهم من أتباع الديانة المسيحية وإن أسلموا، وبالتالي يجب الحذر منهم ولا يجوز أن يتحكموا بمقاليد البلاد؛ بل يبقون دون مناصب قيادية[١].

كما أدى بعض الأسرى الأوروبيين دور الوسيط بين الباشا وبين الشخصيات الأوروبية الوافدة إلى طرابلس. فمثلاً في ٢٣ يوليو ١٧٧٧م رستْ سفينتان في ميناء طرابلس تابعتان للبندقية تحملان القنصل الجديد المدعو "أنطونيو"، لكن الباشا لم يرغبْ في استقبالهم وأبقى السفينتين خمسة أيام من دون أن يتمكن أحد من النزول إلى البر وأوفد إليهم مندوبًا عنه يُدعى "باولو كولو تشي" وهو طبيب أسير من نابولي وكلفه بترتيب استقبال الوفد[٢].

أما في سنة ١٧٨٤م فقد استغل الباشا الأسرى الأوروبيين في العمل بما يتقنونه على أن يعود النصيب الأكبر من المال المكتسب الذي جناه هؤلاء الحرفيون إلى الباشا. وتستغرب الآنسة توللي من هؤلاء الأسرى؛ لأنهم كانوا يجمعون مبالغ كثيرة من عملهم في أثناء رقِّهم ولا يحاولون شراء أعناقهم، بل يبقَون رقيقًا[٣]. ربما يعود ذلك حسب رأي الباحث إلى ما وجدوه من حياة هي أفضل مما ألفوه في بلادهم.

---

(١) عبدالله خليفة الخياط، المرجع السابق، ص ١٤؛ كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ٧٠، ٨٠.

(٣) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٢٦٧

وفي سنة ١٨١٦م بلغ عدد الأسرى الأوروبيين الذين عملوا في خدمة الباشا وخدمة حَرِيمِه ومحظياته وأبنائه مائة أسيرٍ، فضلاً عمن خدموا في بيوت الأعيان والأكابر بل حتى في بيوت بعض أهالي المدينة، حيث أُنيطتْ بهم أعمال كثيرة [١].

ثالثا: الرعاية الصحية للأسرى الأوروبيين:

تعود فكرة ظهور إنشاء أول مستشفى في مدينة طرابلس إلى تواجد الأسرى الأوروبيين في سجونها بكثرة؛ لأن اختلاطهم شكل نواة عدوى لعدة أمراض خطيرة، الأمر الذي جعل الباشا عثمان الساقزلي يُنشئ مكانًا لعلاج المرضى منهم، والذي عرف باسم "البيمارستان"، حيث كان يوفر لهم وجبة يومية من اللحم والمرق، وقدم لهم أيضًا الأدوية بالمجان من صيدلية السراي، وهو ما كان يُعَّد عملاً إنسانيًّا، بالإضافة إلى أنه قام بتطبيق بنود الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي تنص على حسن معاملة الأسرى[٢].

وإذا حاولنا أن نسبر حالة الأوضاع الصحية في تلك الفترة، سنجد أنه في سنة ١٥٥٧م اجتاح وباء الطاعون مدينة طرابلس وأدى هذا إلى موت الكثير من السكان ومن بينهم – بطبيعة الحال – الأسرى الأوروبيون، وعلى الرغم من وجود طبيب يدعى "باسيفيك"، الذي حظى بالتقدير والاحترام لدى محمد باشا الساقزلي (١٦٣٣-١٦٤٩م)، وقد عاش معه أربع سنوات أمضاها في علاج المرضى وكذلك الأسرى الأوروبيين[٣].

وفي سنة ١٦٣٠م أسهمت الراهبات الفرنشيسكانيات في تقديم الخدمات الطبية للأسرى الأوروبيين و البالغ عددهم ما بين ٢٠٠٠-٤٠٠٠ أسير. كما أشرفت منظمة

---

(١) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ٥٤٨، ٥٤٩.

(٢) المبروك محمود صالح، الأوضاع الصحية في إقليم برقة خلال العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة عمر المختار، ٢٠٠٦/٦/٧م، ص ٤١؛ سعيد داود طوقدمير، الأطباء والصيادلة في ليبيا منذ التاريخ القديم إلى سنة ١٩١٠، مجلة الأفكار، العدد العاشر، السنة الثانية، فبراير ١٩٥٧م، ص ص ٢٢، ٢٤.

(٣) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٢٢٢؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ١٨٥، ١٨٦.

فرسان مالطا (فرسان القديس يوحنا) المنبثقة عن هيئةٍ دينية تدعى "أمالفيتانية"، على شؤون المستشفيات المسيحية في طرابلس، كذلك قدمت المساعدة من أجل افتدائهم[١].

وقد كانت الخدمات الطبية التي قدمتها البعثات التنصيرية للأسرى الأوروبيين متفاوتة ومرهونة بحسب مزاج الولاة العثمانيين، فكانت في بعض الأحيان تحتكر لخدمة الباشا وعائلته وكبار الحاشية، والدليل على ذلك هو تمكن البحارة الطرابلسيين من أسر العديد من الأطباء الأوروبيين استغلوهم لخدمتهم، بينما تُرِك بقية السكان ضحية لمُدَّعِي الطب يعالجونهم – كما يدَّعون – بالأحجبة والتعاويذ[٢].

وفيما بين شهري يونيو ويوليو ١٦٤٣م تم أسر مجموعة من الأوروبيين المصابين بالطاعون و نقلوا إلى طرابلس حاملينَ معهم ذلك الوباء الذي تسبب في القضاء على أعداد كثيرةٍ من السكان، ومن بينهم ثلاثة من الأسرى الأوروبيين[٣]. وفي ذات السنة تم أسر خمسين أوروبيًّا وتم اقتيادهُمْ إلى طرابلس حاملين عدوى الطاعون في أجسادهم، فنشروها بين السكان، فقضى على العديد من الأهالي واستمرت موجته حتى العام التالي، فمات العديد من الأسرى الأوروبيين. وفي هذه الأثناء تخوَّف الباشا من انتشار العدوى بين الأسرى الأصحاء، فأمر بفتح مستشفى خاص لهم داخل الحمام الجديد الذي تم إنشاؤه في السنة التالية ليتم علاجهم وصرف ما يحتاجونه من أدوية،

---

(١) حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق: عمار جحيدر، طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ج٢، ٢٠٠١م، ص ٢٥، هامش ١٥؛ عفاف البشير المبروك، المرأة في المجتمع الليبي خلال العصر العثماني الثاني ١٨٣٥–١٩١١م، طرابلس: وزارة الثقافة والمجتمع المدني، ٢٠١٣م، ص ٢٩٨؛ محمود أحمد الديك،" الأوضاع الصحية في طرابلس (ليبيا) منذ العهد العثماني وحتى فترة الاستعمار الإيطالي"، الأوضاع الصحية في ليبيا ١٨٣٥–١٩٥٠ أعمال الندوة العلمية التاسعة التي عقدت بمدينة المرج في الفترة ٦/٣٠ إلى ٢٠٠١/٧/٤، تحرير: محمود أحمد الديك، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٩ م، ص ص ٢٤١، ٢٤٢.

(٢) المبروك محمود صالح، الأوضاع الصحية في إقليم برقة خلال العهد العثماني الثاني، ص ٨٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ص ١٥٨، ١٥٩.

كما قُدمت لهم وجبة غذائية يومية من اللحم. أما بقية الضروريات فكانت تتوفر لهم عن طريق الصدقات التي تجمع أسبوعيًّا بين الأسرى[١].

وقد شهدت سنة ١٦٧٣م تفشي وباء الطاعون بين الأسرى ؛ في الوقت الذي كان الأسطول الفرنسي على مشارف طرابس يسعى لتحرير الأسرى الفرنسيين ولو بالقوة، ولكن ما إن علموا بتفشي الوباء بالمدينة حتى توقفت الحملة على الفور وغادرت المياه الإقليمية لطرابلس، تاركين الأسرى الفرنسيين الذين قُدِّر عددهم بسبعمائة أسير[٢].

وفي الفترة ما بين شهر يونيه من سنة ١٦٧٥م وشهر يوليه سنة ١٦٧٦م انتشر الطاعون بين الأسرى بطرابلس، وقد قام القسيس (جيوفاني) والأب (ما سيودي مانتوفا)- الذي أمضى خمس سنوات في طرابلس كمبشر إرسالي- بخدمة الأسرى، بعزل المصابين من ذوي الحالات الخطيرة في قاعات أرضية من قصر درغوث باشا القديم الذي يقع في شارع الاسبانيول الذي أُعِدَّ كمقر للحَجْر الصحي ولكن عدد الموتى كان كبيرًا، مما دعا السلطات لفتح محجر آخر يقع في الريف بالقرب من المقبرة، إلا إنَّ الأب (ما سيودي مانتوفا) انتقلت إليه العدوى فتوفي في يوم ٧ ديسمبر ١٦٧٦م[٣].

وظل القسيس (جيوفاني) يقوم بمساعدة المرضي ولكن العدوى أصابت أحد المبعوثيْنِ اللذين رافقا القسيس (جيوفاني)، فيما فرَّ الثاني ناجيًا إلى وطنه تاركًا الأب (جيوفاني) وحده، ينتقل من سجن إلى آخر لتقديم المساعدة العلاجية والروحية إلى

---

(١) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ١٥٩، ١٨٠؛ خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ٩٥؛ حبيب وداعه الحسناوى، "الأوضاع الصحية للمنفيين الليبيين في الجزر الإيطالية أرخبيل تريميتي كنموذج ١٩١١-١٩١٢م"، الأوضاع الصحية في ليبيا ١٨٣٥-١٩٥٠م أعمال الندوة العلمية التاسعة التي عقدت بمدينة المرج في الفترة ٦/٣٠ إلى ٢٠٠١/٧/٤، تحرير: محمود أحمد الديك، طرابلس: منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ٢٠٠٩م، ص ٣٣٧.

(٢) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٢٣١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٩؛ كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٢١٢.

الأسرى المرضي، ومن ثَم أصيب الأب (جيوفاني) بالعدوى التي بدت على حركاته وكان يبدو وكأنه أصيب بالهوس [١].

وفيما بين عامي ١٦٧٥- ١٦٧٦م مات الراهب (دي موريال) رئيس الإرسالية الكاثوليكية بطرابلس وراهِبَانِ آخرانِ إثر إصابتهم بوباء الطاعون أثناء قيامهم بمعالجة الأسرى الأوروبيين الذين انتقلت لهم العدوى في السجن، فقد اقتضى الأمر أن يمنح الباشا راهبًا تصريحًا بفتح دار للعلاج وإيواء الأسرى، فضلاً عن ذلك أسست الراهبات الفرنشيسكانيات ما يشبه المستوصف خارج المدينة لعلاج المصابين[٢]. وفي ٢٦ مارس ١٦٧٦م تفشي وباء الطاعون بطرابلس فأدَّى إلى تفاقم الأوضاع الصحية، فنتج عنه حدوث وفيات بين الأسرى بلغت قرابة الثمانين حالة، وكان من بين المتوفين بهذا الوباء والي طرابلس مصطفى الكبير (١٦٧٦-١٦٧٧م) الذي توفي في السنة التالية[٣].

وبعد إصابة القسيس (جيوفاني) بالهوس، وموت الراهب (دي موريال) رئيس الإرسالية الكاثوليكية بطرابلس ، وصل في ١٥ سبتمبر ١٦٧٩م إلى طرابلس الرئيس الجديد وهو الأب (جيورولامو) مع بعض المبعوثين حيث وجدوا القسيس السابق (جيوفاني) قد أخرجته المعاناة القاسية بشقيها المرضى والجسدي عن طوره، وبالرغم من ذلك فقد مات الكثيرون [٤].

وفي سنة ١٦٨٣م قضى أسير أوروبي يدعى "نيكولا باربيل" وهو من البندقية زهاء عشر سنوات في الأسر كان يزاول في أثنائها مهنة الطب واهبًا نفسه لخدمة الأسرى الأوروبيين وتم منحه تصريحًا بالدخول إلى السجن لتقديم الخدمات الطبية

---

(١) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ٢١٢، ٢١٣.

(٢) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٣) محمد خليل بن غلبون، التذكار من ملك طرابلس وما بها من الأخبار، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه، الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس مطبعة النور، ط٢، ١٩٦٧م، ص ١٣٣؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٢٩٥.

(٤) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٢١٣؛ محمود أحمد الديك، المرجع السابق، ص ٢٢٢.

لنزلائه البالغ عددهم مائة وخمسة عشر أسيرًا، وبعد تحريره أصبح – فيما بعد – وكيل قنصل البندقية في طرابلس[١].

وفي ٢٥ ابريل ١٦٩١م لقى أحد الأسرى وهو الطبيب "فرانشيسكو" حتفه متأثرًا بالعدوى التي أصيب بها، ورافق نعشه إلى المقبرة طوائف مختلفة من المسيحيين والمسلمين عَربًا وأتراكًا ويهودًا، إذ لم يُعْرَفْ عن هذا الطبيب التمييز العنصري أو الديني في خدمته للمصابين[٢].

شهد عام ١٧٠٤م موافقة السلطات الطرابلسية على طلب الحكومة الفرنسية السماح ببناء مستوصف يحوي خمسين سريرًا، لمعالجة الأسرى الأوروبيين، ويتم منحهم قطعة أرض بالمجان، حيث كان المرضى الأوروبيون في حالة بائسة داخل السجون، إذ لم تتواجد مرافق يمكن عزلهم فيها عن بقية الأسرى، الأمر الذي أدَّى إلى ظهور عَدْوَى الطاعون بينهم، فنتج عنه وفاة ستمائة أسير، واستمرت وطأة هذا الوباء سنتين إضافيتين. كما توفي متأثرًا بالعدوى أيضًا خليل الأرناؤوطي(*) صهر الداي محمَّد الإمام(**) حاكم طرابلس (١٦٨٧-١٧٠١م)[٣].

أما في عام ١٧١٧م فقد أنشأت البعثة الفرنشيسكانية التنصيرية مستشفى صغيرًا بأموال قدمتها القنصلية الفرنسية والهيئات الدينية التنصيرية وفرسان مالطا، وظل هذا المبنى الصحي يقدم خدماته حتي عام ١٨٣٠م. أما في شهر يوليو ١٧١٩م فقد سَمَحَ أحمد باشا القرمانلي لرئيس الإرسالية بتعديل المستشفى القديم المهدد بالانهيارِ

---

(١) خليفة محمد الأحول، المرجع السابق، ص ص ١٠٠، ١٠١.

(٢) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٢٩٥؛ كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ٢١٥، ٢١٦.

(*) خليل الأرناؤوطي: هو الباشا السابق الذي أرسله السلطان العثماني إلى طرابلس سنة ١٦٧٣م كداي إلا أن الأهالي رفضوا الاعتراف به. للمزيد ينظر: شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ٢٢١، ٢٢٢.

(**) يعدُّ محمد الإمام من القادة العسكريين ولقب بشايب العين لأن حواجبه ورموشه كانت بيضاء، ووصل للسلطة بعد إزاحة إبراهيم التارزي سنة ١٦٨٧م. للمزيد ينظر: شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٢٢١.

(٣) محمود أحمد الديك، المرجع السابق، ص ص ٢٢٢، ٢٢٣؛ محمد خليل بن غلبون، المرجع السابق، ص ص ١٤٨، ١٤٩.

وإصلاحه. كذلك أذن لهم في شهر إبريل عام ١٧٢٣م أيضًا ببناء صِهْرِيجٍ لتجميع مياه المطر في ذلك المستشفى، وقد أظهر أحمد باشا روح التسامح والتقدير لرجال الدين[١].

وفي شهر يونيه ١٧٣٣م تفشى الطاعون في طرابلس مُلْحِقًا الأذى بمعظم الأوروبيين ما بين أسرى ومقيمين إقامة اعتيادية، وقد تم إحصاء أربعة آلاف حالة وفاة من جَّراء هذا الوباء الذي استمر شهرًا ونصف الشهر [٢].

عاود الطاعون تفشيه مرة أخرى في طرابلس خلال الفترة من ١٧٨٤ إلى ١٧٨٦م، حيث أَجْهَزَ على عدد كبير من الضحايا من العرب واليهود، ولم تنجُ راهبات الإرسالية الفرنشيسكانية من هذا الوباء، إضافة إلى إصابة القساوسة الثلاثة الذين كانوا في المدينة بالعدوى نتيجة إسعافهم للأسرى الأوروبيين[٣].

وفي هذا الصدد أوردت الآنسة توللي في يومياتها: بأنه لم يكن في المدينة المنكوبة سوى طبيب واحد من "جِنْوَه" كان يتقاضى راتبًا مقطوعًا من حكومة الباشا وجميع القناصل لقاء خدمته إياهم، وعجز الطبيب عن تخفيف حدَّة الوباء ؛ لأن الوباء استعصي على الطبّ ولم يستجب للمعالجة إلا في أندر الحالات، فهرب سرًّا ليستقل مركبًا إلى أوروبا، وظلت المدينة دون أي طبيب، وبعد مُضِّي ستة أسابيع على بداية الوباء هلك الكثير من السكان المحليون واليهود وتسعة أعشار الأوروبيين، ممن لم يتيسر لهم اتخاذ الاحتياطات الصحية اللازمة أو حصر أنفسهم في حجر صحي إجباري. أما في سنة ١٧٨٧م فقد تواجد في مدينة طرابلس طبيب أوروبي أسير أشرف على صحة الأسرى الأوروبيين والأجانب المقيمين[٤].

---

(١) رؤوف محمد بن عامر، تطور الوضع الصحي في ليبيا، دار الكتاب العربية، ١٩٩٧م، ص ص ٨١، ٨٢؛ كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ٢٦١، ٢٦٢.

(٢) رود لفو ميكاكي، المرجع السابق، ص ٦٦؛ محمود أحمد الديك، المرجع السابق، ص ص ٢٢٤، ٢٢٥؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٤٠٢.

(٣) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٤) الآنسة توللي، المرجع السابق، ص ص ١٩٦، ٢٠٨، ٢٩٢.

رابعاً: السبايا الأوروبيات بطرابلس:

تميزت الأسيرات الأوروبيات عن الإماء السود، وأسباب هذا التميز هو ما يتسمن به من جمال التقاطيع وبياض البشرة، بالإضافة إلى صغر أعْمَارهنَّ، كما أن بعضَهُن تميزن بمواهب كالرقص والغناء، فضلاً عن المكانة التي أعطاها بعض السادة لِسَبايَاهُ سواء اقتصاديًّا أم اجتماعيًّا، بل قد يكون حظ إحداهن الزواج والرقي للطبقة العليا للمجتمع بعد عتقها من سيدها[1].

ملكت أيدي كبار الباشوات ورجال الدولة وزوجاتهم كثيرًا من السبايا الأوروبيات اللاتي يطلق عليهن (الرقيق الأبيض)، وتعددت المهام التي أنيطت بهنَّ، فأغلب رجال الطبقة العليا احتفظوا بهنَّ لإشباع رغباتهم وملذاتهم، حتى أصبحت ظاهرة في المجتمع المحلي الطرابلسي، حيث احتفظ أغنياء الأتراك بهنَّ في بيوت خاصة، أي اعتبرن محظيات لدى أسيادهنَّ، وكنَّ يتفننَّ في طرق إرضائهم خوفًا من الطرد وحياة الفقر. كذلك اسْتُخْدِمَتْ هؤلاء السبايا في الاهتمام بجمال النسوة وزينتهن، وضمت السرايا عددًا كبيرًا منهن كانت مِنْ مهامِهِنّ الإشراف على رعاية الزوجات وأطفالهن، رغم تضرر الزوجات الشرعيات من اختلاط هؤلاء بهن خصوصًا الجميلات، ولعل الغيرة منهن كانت سببًا في عدم اتخاذهن زوجات شرعيات، وما ينتج عن ذلك من إنجاب للأولاد الذين سيشاركون الأولاد الشرعيين في أملاك الزوج، بحسب منطوق الشريعة الإسلامية، خاصة حين يعترف الأب بِأُبُوَّته للولد[2].

مثلت الجواري اليونانيات النسبة الأكبر من العاملات في خدمة سكان القصور الباشوات والأمراء الذين اكتفوا بإطعامهن وكسوتهن، حيث إنهن ارتبطن بالطبقة العليا

---

(1) د . م . ت . ط، الوثائق العربية، ملف رقم (١٧)؛ وثيقة رقم (٦٣٣)، وثائق مختلفة المواضع.

(2) محمد رزوق، قضية الرق في تاريخ المغرب، مجلة البحوث التاريخية، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الثامنة، العدد الثاني، يوليو ١٩٨٦م، ص ١١٣؛ عفاف البشير المبروك، المرجع السابق، ص ٣١٢.

في المجتمع وارتدين ثيابًا أوروبية غايةً في الأناقة بل بعضهن تحلى بالخلاخل من الذهب والفضة، سواء في الأيام العادية أو المناسبات الاجتماعية والأعياد[١].

ولم تتخلَّ الأميرات ولا الباشوات عن هذه الفئة، حيث كانت الأسيرات ترافقن الأميرات داخل القصر وفي مقرَّاتهن الرِّيفية، مما جعلهنَّ يهتممن بمظاهرهن بل إنَّ نساء الطبقات العليا تَعَهَّدْنَ بتعليمهنَّ الدروس الدينية والقراءة والكتابة وأشغال الخياطة والحياكة، بل حتى الفنون وبخاصَّةٍ الموسيقية[٢].

ولاشك في أن الجوانب الاجتماعية أثرتْ في حياة الجواري؛ حيث امتهنَّ الاشتغال كخادمات، فقمن بأعمال وأشغال البيت ، فهن قد تحملن العبء الأكبر من الأعمال المنزلية. بالرغم من ذلك، فقد امتهنَّ الرقص والغناء وتفننت بعضهن في الرقص على إيقاع الموسيقى، ويشاركهن أحيانًا الرجال. كما عَمِلْنَ بالحمامات العامة المخصصة للسيدات بالإشراف على احتياجاتهن داخل الحمام[٣].

اتخذ سكان طرابلس من الإماء – خاصة أولئك اللواتي عُرفن بجمالهن من البيض والسود – زوجات لهم، وحسب المكانة الاجتماعية والاقتصادية للزوج. ومن خلال عقود الزواج نجد أن الطرابلسيين كانوا يفضلون الزواج من الفتيات في سن الثانية عشرة، ويتضح من عدد الوثائق النسبة العالية لزواج السيد من معتوقته أو قد تكون أَمَة لغيره من كبار رجال الإيالة، وتأخذ بعد الزواج مكانة لدى مالكيها وفي الوضع الاجتماعي للمجتمع، بل تتمتع بحياة مترفة من لباس وأحجار كريمة وحلي، غير أن هناك ملامح أساسية وهي أن من وصلن لتلك المكانة كن من الجواري البيض وبعض السود اللاتي تميزن بالجمال. وقد شاركت بعض الجواري بحياكة الدسائس والمؤامرات في قصور الباشوات خلال العهد القرمانلي ١٧١١–١٨٣٥م، نظرًا لكثرتهن في القصور

---

(١) عفاف البشير المبروك، المرجع السابق، ص ٣١٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣١٠.

(٣) د . م . ت . ط، نظارة الداخلية، ملف رقم (٢)، وثيقة رقم (٤٣)، تتحدث عن حياة الرقيق في الولاية؛ عبدالكريم أبو شويرب، الحمامات الإسلامية، مجلة آثار العرب، العدد الخامس، طرابلس، سبتمبر ١٩٩٢م، ص ١٠٣.

والسرايات والولع الشديد من طرف الأمراء باقتنائهن ولو بأثمانٍ مرتفعة، وذلك بهدف التسرّي [١].

أسرف بعض باشوات الأسرة القرمانلية في حياة الشراب والنساء "السبايا"، على غرار ما فعله حفيد مؤسس الأسرة الحاكمة علي القرمانلي ١٧٨٨م، مما كان له انعكاس سلبي على المدينة، وما زاد الطين بلة الانشقاقات التي حدثت داخل الأسرة المالكة[٢].

خامسًا: سوق نخاسة الأسرى بطرابلس وتكاليف الافتداء:

لقد كان مصير الكثير من أولئك الأسرى الأوروبيين الذين لا يتم افتداؤهم من قبل دُولهم أو ذويهم والذين لا يحسنون أي حرفة مفيدة، فيكون مكانهم في الغالب هو سوق النخاسة (والذي أطلق عليه سوق البازار) ويباعون كرقيق [٣].

كان سوق النخاسة يعقد مرة كل أسبوع؛ فيُعرض الأسرى الأوروبيون رجالاً ونساءً للبيع الجماعي، ما لم تتم المساومة عليهم بصورة فردية، وفي تلك الحال كانوا يوضعون وقوفًا على منصات صغيرة، وكان النخَّاس يديرهم إلى جميع الجوانب ويفرِّج المساومين على مزاياهم. وفي هذا السياق ذكرت الآنسة توللي في يومياتها: بأن سوق الرقيق كان يقع خلف جامع أحمد باشا القرمانلي، و يُباع فيه الأسرى الأوروبيون من الذكور والإناث، وكان معظم هؤلاء الأسرى من نابولي وإسبانيا والبرتغال[٤].

لم يكن الباشا يبقي على أولئك الأسرى كلهم بل كان يعرض بعضهم للبيع في أسواق الرقيق، فيشتريهم الأتراك واليهود والعرب، وتُحدَّد أسعارهم كبضاعة حية وفقًا لأعمارهم وصحتهم وجمالهم ومهاراتهم، حيث يُتَاجَرُ بهم لتحقيق أرباح من قيمة الفدية أوإعادة بيعهم بثمن أعلى وتبلغ القيمة المطلوبة لافتداء أي رقيق عادي مالا يقل عن

---

(١) عفاف البشير المبروك، المرجع السابق، ٣١٢؛ الآنسة توللي، المرجع السابق، ص ٢٧٤.

(٢) الآنسة توللي، المرجع السابق، ص ٢٧٤.

(٣) د. م. ت . ط، ملفات الرقيق، م ٨/ م٢ طرابلس جمادي الأول ١٢٩٦هـ؛ عبدالله خليفة الخياط، المرجع السابق، ص ١١٣.

(٤) الآنسة توللي، المرجع السابق، ص ١٦٧.

مئتي سكودو[*] وتساوي فدية الرئيس البحري ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ سكودو، أما الكاتب والمرشد فتتراوح ما بين ٣٠٠ إلى ٤٠٠ سكودو، والبحار والجندي من ٢٥٠ إلى ٣٠٠ سكودو[١].

أما بالنسبة للتجار والطبقة المتوسطة والفرسان فإن الأسعار كانت تتفاوت طبقًا لأوضاع الجهة المهتمة بافتدائهم، ولم يكن هناك أية فرصة للهروب، فالبحر أمامهم والصحراء وراءهم، وكانت هناك عقوبات قاسية للمذنبين مثل: جدع الأنف وقطع الأذن والتعرض إلى ما يتراوح ما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ جلدة في مثل هذه البيئة التي تنهار فيها النفوس تحت وطأة النفي الإجباري وعناء اليأس والتطلع إلى الحرية [٢].

وفي هذا الصدد بلغ سعر خمسين أسيرًا فرنسيًّا بـ أربعمائة ألف قرش سنة ١٦٣٨م. أما في ١٥ يوليو ١٦٥٨م فتم بيع أربعمائة أسير فرنسي بـ مئة وخمسين سكودو عن كل أسير. أما في سنة ١٦٦٢م فقد بلغ ثمن ثمانين أسيرًا هولنديًّا مائتين وعشرين من قطع أبوثمانية النقدية عن كل أسير، وثلاثمائة وخمسين قطعة عن كل رئيس معدات. وفي١٥ مارس ١٦٧٦م بلغ ثمن أحد الأسرى المالطيين يدعى (شارل ديلا غرانج بوينيون) وهو نبيل من أصل فرنسي ثلاثة آلاف سكودو[٣].

أما في ٢٧ نوفمبر ١٦٨١م فوصل ثمن ٢٦٠ أسيرًا فرنسيًّا مائة وخمسين قرشًا[*] عن كل أسير. فيما بلغ سعر ثمانية أسرى فرنسيين ما بين ١٢٠ و١٣٠ قرشًا

---

(١) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ٢٢٨.

(٢) خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ١٠٣؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ٢٠٤؛ ٢٤٤؛ كوستانزيوبرنيا، المرجع السابق، ص ٢٠٩.

(٣) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ٢٢٨، ٢١٩.

(*) **القرش**: هو عملة فضية تكونت من نوعين: القرش الصاغ ويعادل ٤٠ بارة، والقرش الرائج أو الجاري ويعادل ١٠ بارات (أي ربع القرش الصاغ)، وقد سكت أنواع عديدة من أجزائه مثل: القرشين ويعادل ٨٠ بارة، ونصف القرش ويعادل ٢٠ بارة. للمزيد ينظر: ياسين شهاب الموصلي، الأوضاع الاقتصادية في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي ١٨٣٥-١٩١١م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ٢٠٠٦م، ص ١٩١.

للأسير الواحد وذلك في ١٧٢٨/٨/١٣م. أما في سنة ١٧٣٠م فقد بلغ ثمن ثلاثين أسيرًا (٢٦ من البندقية و ٤ من ميلانو)، ١٠٤١٢ دوكاتو[*].

ومن المعلوم أنه كان هناك تفاوت في أسعار هذه السلعة البشرية، فكان أفضلهم أسرى البندقية نظرًا لاستخدامهم في الأعمال البحرية في ظل خبرتهم الواسعة في هذا المجال؛ ولذلك نجد أن ثمن أحد ربابنة السفن واسمه (زورزي تفانللي) الذي أُسر بتاريخ ٤ يناير ١٧٣٩م وهو قائد لمركب تجاري كان يُطلَق عليه "سان فرنسيسكو" قد بلغ سعره وحده ٤٠٠٠ دوكة إيطالية (الدوكة الذهبية)، وبعد مفاوضات نجح مفوض فرنسا (كولات) في تخفيف المبلغ المعروض لشراء زورزي" من ٤٠٠٠ إلى ٣٢٠٠ دوكة وهو ما يعادل ٦٥٠ سكيني (عملة إيطاليا أيضًا) وتم إطلاق سراحه في ١٥ أغسطس ١٧٣٩م[١].

وفي سنة ١٧٥١م بلغ سعر اثنى عشر أسيرًا دانمركيًّا بـ ٢١٥٠٠ زوكيني. فيما دفعت الولايات المتحدة الأمريكية ٤٠ ألف دولار إسباني[**] ثمنًا لأربعة أسرى أمريكيين وذلك في سنة ١٧٩٧م[٢]. و تراوحت قيمة ٢٣ أسيرًا من نابولي ما بين ١٠٠-٣٠٠ دولار للأسير الواحد سنة ١٨٠٥م[٣].

---

(١) محمد الهادي أبو عجيلة، المرجع السابق، ص ص ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ٢٥٩، ٢٦٠؛ خليفة محمد الأحول، المرجع السابق، ص ٣٤؛ رود لفوميكاكي، المرجع السابق، ص ٥٨؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٤١.

(*) **دوكة**: جمع دوكات وهي عملة بندقية صدرت سنة ١٢٨٤م وسميت فيما بعد بالزكينو ويساوي ٣,٥٥ غرام ذهب. للمزيد ينظر: الشرق الإسلامي والغرب المسيحي – عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط (١٤٥٠-١٥١٧م)، بيروت، لبنان، مؤسسة الريحاني، ١٩٨٩م، ص ٢٨٨.

(**) **الدولار الأسباني**: كل ٥ دولارات تساوي جنية إسترليني واحد. للمزيد ينظر: كولا فولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القرمانلي، ترجمة: عبد القادر مصطفي الوحيشي، مراجعة: صلاح الدين السوري، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ١٩٨٨م، ص ٤٨.

(٢) بروشين، المرجع السابق، ص ص ١٢٦، ١٨٣؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٤٧.

(٣) كولا فولايان، المرجع السابق، ص ص ٤٨، ٤٩؛ محمد الهادي أبوعجيله، المرجع السابق، ص ص ٢٤٢، ٢٤٣؛ كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ١٦٤.

وفي ٤ يونيو سنة ١٨٠٥م دفعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ستين ألف دولار مقابل إطلاق سراح جميع أسراها. أما في سنة ١٨٠٩م فقد بلغ سعر ١٢٣ أسيرًا من صقلية ونابولي ٣٠٠ دولار للأسير. وفي ١٨١٢م دُفع ٣١٠ قرشًا عن كل أسير صقلي. كما بلغ ثمن ١٥ أسيرًا نمساويًّا ٣٠٠ دولار للأسير سنة ١٨١٤م[١].

وفي ١٩ نوفمبر ١٨١٥م دُفِع خمسة وعشرون ألف قرش لإطلاق الأسرى الدانماركيين. وبلغ ثمن ٤٥ أسيرًا دانماركيًّا مائتين وخمسين ألف قرش في السنة نفسها. أما في ٨ مايو ١٨١٦م فأطلِق سراح ٤٢٢ أسيرًا من نابولي بثمن خمسين ألف قرش[٢].

سادساً: معاملة الأسرى الأوروبيين في طرابلس:

لم يكن الأسير لدى الطرابلسيين ذليلاً، كما ذكر بعض الحاقدين؛ لأن الدين الإسلامي نظر للأسرى نظرة آدمية وحماهم من التعذيب والمعاملة القاسية. فالدين الإسلامي أمر بمعاملة الأسرى بالعدل واللين. ولهذا فإن الطرابلسيين سمحوا للراغبين منهم في تحرير أنفسهم بجمع المال اللازم للافتداء من الأسر. وفي هذا الصدد خص درغوت باشا الأسرى الأوروبيين الذين شاركوا في انتصاره على سكان منطقة تاجوراء بالمعاملة الخاصة تثمينًا لمواقفهم وذلك سنة ١٥٦٠م[٣].

كما تزوج كثير من الحكام من الأسيرات الأوروبيات اللاتي كن يعتنقن الإسلام و ينتسبن إلى أب روحي باسم عبدالله. حيث عوملت الأسيرات الأوروبيات والأطفال معاملة خاصة، وكانت إقامتهنَّ في سجن القلعة. وأعفَى السلطان الأسرى المتزوجين من أية خدمة تستغرق وقتًا طويلاً، وذلك لفتح المجال لهم للبحث عن قُوت أبنائهم مع تمتعهم بالمبيت والأكل والملبس مجانًا والسماح لهم بممارسة عباداتهم داخل كنيسة[٤].

---

(١) عبدالله خليفة الخباط، المرجع السابق، ص ٧٢؛ دور لفوميكاكي، المرجع السابق، ص ١٧٠؛ كولافولايان، المرجع السابق، ص ص ٩٥، ٩٧، ٩٩.

(٢) عبدالله خليفة الخباط، المرجع السابق، ص ١١٨، ١١٩.

(٣) كاميلو مانفروني، المرجع السابق، ص ٨١؛ كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٧٧.

(٤) رود لفوميكاكي، المرجع السابق، ص ٨٢؛ كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ٢١٦.

احتج التجار وذوو الأسرى الفرنسيين إلى الحكومة الفرنسية سنة ١٦٠٠م على أَسر سفنهم وذويهم من قِبَل البحارة الطرابلسيين ، فاحتجت بدورها لدى استانبول التي أصدرت فرمانًا سلطانيًّا في ٢٠ مايو ١٦٠٤م يضمن حصانة لسفن فرنسا التجارية بل إن استانبول قدرت موقف الحكومة الفرنسية بحق استرجاع رعاياها الذين أُسِروا ومعاقبة الذين يخترقون تلك الاتفاقية. وفي سنة ١٦٠٥م وصل سفير الحكومة الفرنسية المدعو "دي بريفيس" إلى طرابلس، واستُقبِل بالتكريم اللائق وتم إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين بدون فدية(١).

أظهر الوالي محمد باشا الساقزلي تسامحه للإرسالية الفرنشيسكانية التنصيرية فسمح لها بممارسة نشاطها الديني في طرابلس، فباشر أعضاؤها عملهم بين الأسرى الأوروبيين في محاولة لمنعهم من التحول عن الدين المسيحي؛ في ظل الإغراءات التي يقدمها الباشوات للذين يتخلون عن عقيدتهم المسيحية، كمنحهم شيء من الحرية وإعفائهم من الأعمال الشاقة لدرجة أنهم في بعض الأحيان يبلغون بفضل ذكائهم أعلى المناصب على مستوى ولايات الشمال الأفريقي، حيث بلغ بهم الأمر أن تولى بعضهم وظائف مهمة في البلاد كوظيفة كاتب الوالي الطرابلسي في القرن السابع عشر، كما كلفوا بتحرير المراسلات إلى أمراء أوروبا وتجارها. وكانت لهذه المعاملة الحسنة التي لقيها هؤلاء الأسرى على يد الباشا الأثر الطيب على نفسية كثير منهم، خاصة الذين يعانون من الحنين إلى الوطن، الأمر الذي جعلهم وفي الغالب يسارعون في التخلي عن المسيحية، واعتناق الدين الإسلامي(٢).

ولما وصل مبعوثا الهيئات الدينية والبابوية إلى طرابلس سنة ١٦٤١م، سمح لهم محمد باشا الساقزلي ببناء كنيسة صغيرة(*) وممارسة الشعائر الدينية، وَسُمِحَ لهم بالتردد على الحمام القديم والقيام بالشعائر فجر كل يوم قبل توجه الأسرى إلى العمل فَسُرَّ

---

(١) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٦٢.

(*) كانت هذه الكنيسة المكان الأول أو النواة الأولى للارسالية المقبلة بطرابلس، وهي تقع قرب الكنيسة الحالية (سانتا ماريا دانجلي) في باب البحر. للمزيد ينظر: كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ١٦٣.

الأسرى الأوروبيون بوجودهم. وفي سنة ١٦٥٤م أُسِر شخص يُدعَى (باترون أوجر)، وهو خبير في بناء السفن، حيث قام ببناء أربع سفن فكان مَبْعَثَ سرورٍ وارتياح لدى الوالي الذي غمره بكرمه وحسن معاملته وأعاده إلى بلاده من دون دفع أية فدية، كما قدَّم له الهدايا الثمينة عند سفره، وقد درَّب هذا الخبير شخصين؛ فأصبحا خبيرين في صناعة المراكب. ومما يجدر ذكره تعرض التجار الأوروبيين الذين يشاركون في تهريب الأسرى إلى عقوبة الاسترقاق وشمل هذا العقاب الملاحين، كما تُصادَر السفينة وما عليها من بضائع، وهو نظام فعَّال للقضاء على أية محاولة لتهريب الأسرى، ويحسب لمحمد باشا الساقزلي (١٦٣٣-١٦٤٩م) أنه كان من الولاة الذين عاملوا الأسرى الأوروبيين معاملة حسنة وطيبة، وكان ذا شخصية تثير الإعجاب بفعاليته وحيويته ويملك عقلاً حكيمًا كما اتصف بالحصافة[١].

وفي سنة ١٦٦٥م أذن عثمان باشا الساقزلي ببناء كنيسة خلف حمام "سان ميكيلي"، ليمارس فيها المسيحيون والأسرى طقوسهم الدينية، كما خَّص الباشا بعض الأسرى الأوروبيين من الفرسان بمعاملة خاصة، وعمل على استخدام كل صانع في الحرفة التي يتقنها[٢].

أما في سنة ١٦٧١م فقام عثمان باشا الساقزلى باستعراض الأسرى الأوروبيين وفي هذه المناسبة أكرمهم فمنح كل واحد من هؤلاء البائسين شبه العراة طاقَّيةً وقميصَ نومٍ وقطعةً من الكَتَّان ليحيك كل واحد منها سروالاً وثوبًا. وفي هذا الصدد يوضح الجدول رقم (١) أعداد هؤلاء الأسرى الذين كانوا في سجون طرابلس خلال تلك الفترة:

---

(١) خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ١٠٢؛ كوستانزيوبرنيا، المرجع السابق، ص ١٩١.

(٢) كوستانزيوبرنيا، المرجع السابق، ص ١٨١.

جدول رقم (١)

أسرى السجن القديم	**٤٩٠ أسيراً**
أسرى السجن الجديد	**٤٧٤**
أسرى سجن القديس ميشل (أو سجن الترهين)	**٤٧٥**
أسرى القلعة وأسرى بيوت خاصَّة	**١٢٠**
المجموع الكلي	**١٥٥٩ أسيراً**

مصدر الجدول: شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص ٢٠٩، ٢١٠.

وخلال فترة من حكم عثمان باشا الساقزلي (١٦٤٩-١٦٧٢م) أمر بتقييد كل اثنين منهم في سلسلة واحدة، وهذا الإجراء يفسر – حسب رأي الباحث – خوف الباشا من هروبهم على غرار ما حدث في منطقة رأس الهنشير عندما كانوا ينقلون أحجارًا إلى المراكب، حيث تمكنت مجموعة منهم بلغت خمسين أسيرًا من الهروب بواسطة أحد المراكب المتوجهة إلى مالطا، وكان من بينهم أحد سادة (فاليس)، وجراح من (لانجيدك)، الأمر الذي أغضب الباشا وأمر بأن تُتخَذَ إجراءات مشددة ضد الأسرى في المستقبل، وأن يتم تقييد كل اثنين منهم بالسلاسل[١].

وفي سنة ١٦٧٦م هاجم الأسطول الإنجليزي طرابلس وتسبب في خسائر فادحة لحقت بالأسطول الطرابلسي، ولقد حزَّ ذلك في نفس الوالي كثيرًا ، فأمر بإغلاق السجون على الأسرى ومراقبة المشتبه فيهم بأنهم أعطوا الإشارات للأسطول الإنجليزي لمساعدته في الهجوم، وبخاصة الإنجليز منهم ، حيث كُبِّلوا بالقيود[٢].

وقبيل وصول أحمد باشا القرمانلي لحكم طرابلس سنَّ خليل باشا الذي تولى حكم طرابلس– وهو من الإنكشارية – بمساعدة أحد الأعلاج في القصر قرارًا بأن بنات الباشوات لا يتزوجن إلا من الأعلاج. وكان الباشوات يستخدمون في القصر الكثير من أولئك الأسرى خَدَمًا، إلا أنَّ بعضهم غُدِر به مقابل أموال يقدمها المناوئون[٣].

---

(١) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٢٠٣.

(٢) محمد الهادي أبوعجيله، المرجع السابق، ص ص ١٠٩، ١١٠.

(٣) خليفة محمد الأحول، المرجع السابق، ص ص ٧٠، ٨٠؛ حسن الفقيه حسن، المرجع السابق، ص ٢٥.

وفي سنة ١٦٧٥م أمر إبراهيم التارزي بهدم كنيسة الجالية اليونانية، فظلوا بدون كنيسة مدة من الزمن، ثم سمح لهم بإعادة إنشائها، فقاموا بذلك بسرعة. وكان قد اتخذ هذا الموقف بناءً على سوء معاملة الأسرى الطرابلسيين في البلدان الأوروبية[١].

كما عومل الأسرى الأوروبيون في أثناء حكم الداي مصطفى غروصُّو (١٦٧٦-١٦٧٧م) معاملة حسنة، إذ سمح للرهبان الإرساليين المارون بالإقامة داخل السجون وممارسة شعائرهم الدينية[*].

وأَظهر أحمد باشا القرمانلي (١٧١١-١٧٤٥م) كثيرًا من الود للأسرى الأوروبيين، غير أنَّه بتاريخ ٢٤ فبراير ١٧٢١م أظهر غضبه وقسوته الشديدة نحوهم على أثر بلوغه خبر تعذيب الأسرى الطرابلسيين في سجون (شيفيتلفيشيا) القريبة من روما، حيث ضُربوا بالفلقة ولقوا معاملة قاسية وكان من بينهم أحد القضاة الطرابلسيين، ما أثار غضب أهالي طرابلس وثاروا على قساوسة الإرساليات التنصيرية فسجنوهم في غرف أسفل مبنى القلعة[٢]. ومن الملاحظ أن التعذيب الذي تعرض له الأسرى الأوروبيون بطرابلس، لم يكن إلا رد فعل للقسوة التي يتعرض لها الأسرى الطرابلسيون وكمعاملة بالمثل وردِّ الصاع بالصاع[٣].

وبناءً على ذلك أصدر أحمد باشا مرسومًا بإغلاق الكنيسة الإرسالية الفرنشيسكانية والمستوصف التابع لها، وتدخل القنصل الفرنسي لحل هذه الأزمة، وأقنع الباشا بفتح الكنيسة، ووافق الباشا بشرط أن يحرر القنصل الفرنسي خطابًا موجهًا إلى السلطات في روما، يطالبها فيه بالكفِّ عن إساءة معاملة الأسرى الطرابلسيين[٤]. ولما

---

(١) خليفة محمد الأحول، المرجع السابق، ص ٩٩.

(*) في سجون الجزائر على سبيل المثال؛ كتب أسير يدعى "سرفنتيس" أحسن ما ألف في الأدب العالمي رواية "دون كيشوت"، التي أكسبته شهرة كبيرة، حيث كتبها باللغة الإسبانية وترجمت إلى اللغة العربية. للمزيد ينظر: مكاييل سرفنتيس، دون كيشوت، تعريب: أكرم الرافعي، دار العلم للملايين، لبنان – بيروت ط١، ١٩٧٥م.

(٢) رود لفوميكاكي، المرجع السابق، ص ٢٦.

(٣) كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق، ص ١٤.

(٤) شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٣٧٩؛ كوستا نزيو برنيا، المرجع نفسه، ص ٢٦١.

أُسِرَ الربان "زورزي تفانللي"، عام ١٧٤٩م، لقى معاملة حسنة وأنزله الباشا بقصره وعهد بعلاجه وعلاج جميع بحارته إلى أحسن أطبائه، وخلال نزولهم في المستشفى كان العديد من حاشية الباشا يزورونهم، ويتابعون علاجهم حتى شُفوا وتم افتداؤه[١]. وحينما ارتقى علي باشا القرمانلي عرش طرابلس بعد أبيه محمد باشا سنة ١٧٥٤م، حظِيَ الأسرى الأوروبيون بعطفه وحمايته الدائمين وبالعدل والتسامح [٢].

وذكر إتوري روسي أن الأسرى الأوروبيين في سنة ١٧٨٦م لقوا معاملة حسنة، حيث بلغ عدد الإيطاليين منهم مئة أسير. كما ذكرت الآنسة توللي أن عدد الأسرى الأوروبيين خلال سنة ١٧٩٠م كان قليلاً معظمهم شيوخ عجزة أو مرضى وأغلبهم من المالطيين، وأكدت على أنهم لقوا معاملة حسنة، فكانت ثيابهم نظيفة وتغذيتهم جيدة ولم يكبلوا بالقيود في أيديهم ولا أرجلهم، وإنما كانوا طُلقاء مؤتمنَين يروحون ويجيئون إلى كل مكان وكأنهم في كامل حريتهم. وكان يُعطَى لهم كل سنة جلابية ولهم الحق في الدفاع عن أنفسهم، وقُسِّمُوا على حسْبِ جنسياتهم وكان لكل جنسية رئيس يُنتخب كل سنة[٣]. ولما سيطر "علي برغل الجزائري" على طرابلس ، أحدث مذبحة بالأسرى في ١٨ يناير ١٧٩٥م، حيث قطع رؤوس ٣٠ شخصًا كان أكثرهم من الأسرى [٤].

وفي سنة ١٧٩٦م طلب نابليون بونابرت من "جيس" قنصل بلاده في طرابلس إبلاغ يوسف باشا بنبأ إلغاء منظمة فرسان القديس يوحنا، كما حثه على تقديم معاملة أفضل للأسرى المالطيين، وهي لفتة تدل على حسن النوايا تجاه يوسف باشا؛ فقد حمَّلَ سفينة بكل الأسرى الطرابلسيين، بالإضافة إلى أسرى من عرب الشمال الأفريقي و

---

(١) خليفة محمد الأحول، المرجع السابق، ص ص ٤٥، ٤٦

(٢) المؤلف مجهول: حُكْم علي قرمانليّ باشا طرابلس الغرب ١٧٩٣م "تكملة تاريخ إيالة طَرابلس الغَرب، تحقيق وترجمة: يان فانسينا وعبدالرحمن أيوب، مراجعة: عبدالحكيم الأربد، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية، ١٩٧٨م، ص ١٣.

(٣) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٦٥ ؛ الآنسة توللي، المرجع السابق، ص ٤٣٦.

(٤) ن.إ. بروشين، المرجع السابق، ص ١٥٥.

عددهم أَلْفَا أسيرٍ كانوا محتجزين في مالطا. في المقابل رد الباشا عليه مطمْئنًا إياه بأنه سيعامل المالطيين كلهم بالاحترام نفسه الذي خصَّه الفرنسيون به[1].

وفي ١٦ يونيه ١٧٩٨م أصدر نابليون أمرًا موجهًا إلى المالطيين أنفسهم يقضي بضرورة حسن معاملة الأسرى العرب والأتراك جميعهم ومنحهم الحقوق التي تضمنتها المواثيق والتقاليد الدولية المعروفة، وعدم اعتبارهم مجردُ غنائم قرصنة على غرار ما كان يُنظر إلى أولئك الأسرى أيام حكم فرسان القديس يوحنا، و قرر نابليون أنه سيتم عتق أولئك السجناء المسلمين بناء على أمر سيصدره لاحقًا وذلك بمجرد أن يتم إبلاغه – على حد تعبيره – بأن حكَّام إيالات الشمال الأفريقي وافقوا على إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين والمالطيين المتواجدين في تلك الإيالات وإرسالهم إلى جزيرة مالطا[2].

على أيةِ حالٍ، فإنه لم يكن في تلك الفترة بطرابلس – فيما يبدو – أسرى من الفرنسيين أصلاً، وعندما عَلِمَ يوسف باشا القرمانلي بالأحداث التي مُنيت بها جزيرة مالطا، بادر من جانبه مبديًا نواياه الطيبة تجاه محتلِّي الجزيرة الجدد، وكتب الجنرال الفرنسي "فوبوا" الذي أوكل إليه نابليون مهمة قيادة قوات الحامية الفرنسية بمالطا إلى يوسف باشا؛ فأكد الباشا لحاكم الجزيرة الجديد أن إيالة طرابلس الغرب ليس بها أسرى مالطيون، وعندئذٍ لم يلبث الجنرال "فوبوا" أن أفرج عن تسعة من الطرابلسيين الذين كانوا أسرى بالجزيرة، كما وجَّه هذا الجنرال الفرنسي من مالطا في اليوم التاسع من شهر يوليه خطابًا ضمنَّه مشاعر الودّ التي يكنُّها – على حد زعمه – ليوسف باشا، وعبَّر له عن ثقته في حسن النوايا المتبادلة، كما رجاه أن يُصدر أوامره إلى بحارة أسطوله بضرورة احترام السفن المالطية التي أصبحت تعمل من ثَم تحت حرمة الراية الفرنسية. غير أنَّ نابليون كانت وجهة نظره عكس ذلك في أثناء حملته على فلسطين بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٧٩٩م إذ أمر بقتل ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين في العريش وغزَّة ويافا

---

(١) محمد عبدالكريم الوافي، يوسُف باشا القرمانلي والحملة الفرنسيَّة على مصر، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ط١، ١٩٨٤م، ص ١٠٩؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٧٦.

(٢) ن.إ.بروشين، المرجع السابق، ص ٢١٣.

وتُرِكت جثثهم في العراء من دون أن تُوارَى التراب فنهشتها الكواسر الجائعة، ونهب نابليون أموال الناس في يافا بل إن جنوده قد قاموا بقتل النساء والأطفال حتى سالت دماؤهم في شوارعها[١].

وهنا لابد من الإشارة إلى سوء معاملة الأسرى المسلمين في سجون الدول الأوروبية، حيث كان قتْل الأسرى المسلمين آنذاك طبيعيًّا، وهذا أقلق حكومات الشمال الأفريقي، وأثار المخاوف على أبنائها وعلى مصيرهم، وكانت إيالات شمال أفريقية ترفض معاملة الأسرى الأوروبيين بالمثل، وأكدت أكثر من مرة بأن قتل الأسير جريمة كبرى ولذلك حُرِّم قتل الأسرى تحريمًا باتًّا امتثالاً لأوامر الشريعة الإسلامية[٢].

عمد الأوروبيون إلى قطع أنوف وآذان المسلمين الذين وقعوا أسرى لديهم وقتلهم بعد تعريضهم لعذاب شديد لا يمكن للعقل تصوره أو إدراكه. فأرسل خير الدين بربروسا خبرًا رسميًّا إلى حكومات إسبانيا وجِنْوَا والبندقية يُعْلِمهم فيه أنه (إذا استمروا في ممارسة الأعمال اللا إنسانية، فسوف يعامل أسراهم المعاملة نفسها، وأن الأسرى المسلمين كافة حتى (المقاتلين) الذين يؤسرون ينبغي ألا يتعرضوا للعذاب والقتل)، وقد تظاهروا بقبول عرضه لكنهم استمروا في معاملة الأسرى المسلمين بوحشية، فاضطُر خير الدين إلى تنفيذ إجراءاته أسوة بما يفعلونه بحق الأسرى المسلمين، فصدرت أصوات الاستغاثة والنجدة من مختلف الجهات ملتمسة منه إيقاف وعيده والكف عن إيذاء الأسرى، فغدوا يُعامَلون كأسرى فقط ولم يُفرض عليهم سوى ممارسة الأعمال الشاقة، أما القتل فإنهم لا يُقتلون إلا في حالة الفرار[٣].

في الوقت الذي كان خير الدين يسعى للمحافظة على سلامة الأسرى المسلمين وضمان أرواحهم، أوقع الأسرى الذين بين يديه الأذى والعذاب بأنفسهم، فقد أرسل هؤلاء

---

(١) محمد عبدالكريم الوافي، المرجع السابق ص ص ١١٠، ١١١، ١١٢؛ محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، (بيروت: دار الجيل (أوفست)، ١٩٧٧م)، ص ١٨٢.

(٢) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٩٠، ٤٠٣.

(٣) عَزيز سَامِح التِر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، لبنان: دار النهضة العربية ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص ص ١٠١، ١٠٢.

الأسرى رسالة إلى قائد بجابة يخبرونه فيها بوجود سبعة آلاف أسير في سجن الجزائر، وأنه في حال إرساله سفينة في الوقت المحدد فإنهم سيقفلون الأبواب ويخرجون من السجن، فإذا لم يتمكن من احتلال المدينة فإنه على الأقل سينقذهم من الأسر، لكن الرسالة وقعت بأيدي خير الدين وبعد إطلاعه عليها تركها تصل إلى قائد بجابة كي يضبطهم بالجرم المشهود[١].

وهنا سوف نقتصر على وَصْف حالة الأسرى المشتغلين بالتجديف في السفن كمثال، فقد كانوا يُربطون بالسلاسل من أعناقهم ويسيرون مثنى في صف طويل وتوضع سلسلة طويلة في الحلقات الموجودة بسلسلة الأعناق كل سفينة كانت تضم قرابة ٣٠٠ مجدف يعيشون لمدة ثلاثة أشهر مكدسين في مساحة صغيرة بأسفلها ويقومون بتحريك مجداف خشبي طوله ١٦ مترا، وكان التجديف يستمر أحيانًا أربعًا وعشرين ساعة دون توقف وصاحَبَ ذلك استعمال السوط، وعقاب الهارب غالبًا بعد القبض عليه هو قطع الأنف والأذنين. أما الأكل فتكوَّن من ٢٦ أوقية من الخبز اليابس وأربع أوقيات من الفول السيئ الطهي والصلب مع القليل من الزيت والملح. وكانوا يرتدون بِذَلاً حمراء تعطَى إليهم كل سنة، ولم تكن تقاوم المناخ البارد. هذا الوضع المأساوي هو الذي دفع السلطان مولاي إسماعيل أن يقول لسفير فرنسا بالمغرب السيد "سانت أمان" في سنة ١٦٨٢م بعد أن قدم له هدايا كثيرة: "لو حملت لي أسيرًا واحدًا من رعيتي الموجودة بفرنسا لفضلته على كل أموال العالم"[٢].

وفي سنة ١٨٠٥م لقى الأسرى الأوروبيون معاملة حسنة وتولى المعتنقون الدين الإسلامي مناصب عالية في طرابلس[٣].

---

(١) عَزيز سَامِح الِتر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٢) محمد عبدالكريم الوافي، المرجع السابق ص ص ١١٢، ١١٨؛ عَزيز سَامِح الِتر، المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٣) خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ١٤٩.

سابعاً: موقف الحكومات الأوروبية من أسراها:

إذا دققنا النظر في جهود الحكومات الأوروبية لتحرير أسراها، فإننا نلاحظ ذلك من خلال الاتفاقيات الدولية التي أبرمتها تلك الحكومات مع طرابلس والتي أدت دورًا ايجابيًّا في عملية افتداء الأسرى الأوروبيين، فمثلاً: تم توقيع اتفاقية بين السلطات الطرابلسية والحكومة الفرنسية سنة ١٦٠٥م، نص أحد بنودها على تحرير جميع الأسرى الفرنسيين بطرابلس، وتعيين قنصل في طرابلس مهمته تحرير الأسرى الفرنسيين فضلاً عن الأمور التجارية[١].

وفي سنة ١٦٣٠م وقعت فرنسا اتفاقًا مع إستانبول لكي تساعدها في الضغط على إيالات الشمال الأفريقي حتى تحرر أسراها. فحمَّلت استانبول ممثل فرنسا المدعو (برينجير) وهو في طريقه إلى طرابلس إخطارًا يؤيد مطالب حكومته في تحرير أسراها، حيث استقبله مصطفى داي (١٦٢٤-١٦٣١م) بكل مظاهر الترحيب ووافق على تحرير أسراهم، ومن ثَمَّ عاد المبعوث إلى وطنه ومعه مِائةُ أسيرٍ فرنسي. أما في ١٣ مارس ١٦٣٨م فعُقِد اتفاقٌ بين الحكومة المالطية والسلطات الطرابلسية أتاح تبادُلَ الأسرى المالطيين الموجودين في طرابلس، مقابل فك أسر الطرابلسيين المحجوزين في مالطا[٢].

كما لجأت بعض الحكومات الأوروبية إلى استعمال القوة لكي تحرر أسراها بطرابلس. فمثلاً: هاجمت قوة بحرية مالطية ميناء طرابلس سنة ١٦٤٠م وتمكنت من تحرير أربعة عشر أسيرًا أوروبيًّا، عشرة منهم من مملكة نابولي وأربعة من الفرنسيين، وبعدها بعامين (١٦٤٢) قامت المراكب المالطية أيضًا بتحرير ١٣٧ أسيرًا أوروبيًّا.

---

(١) نوري عمر الشتيوي، المرجع السابق، ص ٣٢.

(٢) علي مفتاح إبراهيم، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ٢٠٠٥م، ص ١٤٤؛ كوستا نزيو برنيا، المرجع السابق ص 130؛ نوري عمر الشتيوي، المرجع السابق، ص ص ٣٢، ٣٣؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١٤٢؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ص ٢٧٠، ٢٧١، ٣٠١.

وبعدها بسنتين (١٦٤٤) أيضًا تمكنت الحكومة المالطية من تحرير خمسة من بحارتها الذين أسرتهم القوات البحرية الطرابلسية في السنة المنصرمة[١].

وبالرجوع مرة أخرى إلى الاتفاقيات نجد أن الاتفاقية التي وُقِّعَتْ بين السلطات الطرابلسية والحكومة الفرنسية، أتاحت الحق في تحرير أربعمائة أسير فرنسي وذلك بتاريخ ١٥ يوليو ١٦٥٨م. وخلال السنة نفسها أتاح الاتفاق الذي وقعته انجلترا مع طرابلس تحرير جميع أسراها بطرابلس، ناهيك عن اتفاقية أخرى أبرمتها انجلترا مع طرابلس، تم بموجبها تحرير جميع الأسرى الانجليز دون دفع أية فدية وذلك في سنة ١٦٦٠م[٢].

حذت هولندا الحذو نفسه فوقعت اتفاقية مع طرابلس سنة ١٦٦٢م، تم على إثرها تحرير أسيرٍ بالمجان كان له شقيق يعمل نوتيًّا في الأسطول الهولندي، بالإضافة إلى افتداء ثمانين أسيرًا هولنديًّا[٣].

واستمرارًا لنمط المعاهدات التي أبرمت بين الحكومات الأوروبية وطرابلس، فقد أثمرت المعاهدة التي أبرمتها الحكومة الفرنسية مع السلطات الطرابلسية بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٦٨١م إلى تحرير ٢٦٠ أسيرًا فرنسيًّا؛ ولكن هذه الاتفاقية تم اختراقها بعد عام بحجة أن النسخة المصدق عليها من ملك فرنسا لم تصل إلى طرابلس، ووفقًا لهذا فقد تم دفْعُ مبلغ مائة وخمسين قرشًا عن كل فرد من أولئك الذين اختُطِفوا من على ظهر السفن الحربية الفرنسية ومبلغ مائة قرش عن كل واحد ممن عداهم. وأدت نتائج ذلك الخرق لقصف السفن الفرنسية لميناء طرابلس بقذائف المدفعية، مما أدَّى إلى قبولها للشروط من جديد، وعلى أثر ذلك تم تحرير ١٢٠٠ أسير أوروبي – كان أغلبهم من الإيطاليين – فضلاً عن دفع تعويض لفرنسا قدره ٤٠٠ ألف فرنك. وقد دفعت الحكومة الطرابلسية تعويضًا عن خرقها للمعاهدة مع فرنسا قدره ثمانين ألف دولار، وكانت المادة

---

(١) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ص ٢٧٠، ٢٧١؛ عبدالرزاق أحمد النصيري، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٢) خليفة محمد التليسى، المرجع السابق، ص ١٠٣؛ شارل فيرو، المرجع السابق، ص ١٩٣؛ ن.إ. بروشين، المرجع السابق، ص ٩٨.

(٣) شارل فيرو، المرجع نفسه، ص ٢٠٤.

الخامسة في المعاهدة تنص على تحرير الأسرى، ووفقًا لنصها فقد تم تحرير الأسرى الفرنسيين. وفي سنة ١٦٨٣م تمكنت هولندا من تحرير تسعة أسرى هولنديين كان من بينهم أسير ظل رهن الاعتقال منذ سنة ١٦٦١، فيما كان الباقون معتقلون منذ سنة ١٦٧٦م. واتفق الطرابلسيون والفرنسيون على تبادل أسراهم سنة ١٦٨١م عقب معركةٍ بحرية جرت بين الطرفين في بحر إيجه، حيث تم ارجاع جميع السفن الفرنسية التي أسرها الطرابلسيون، فضلاً عن إطلاق سراح ٨٠٠ أسيرٍ فرنسي، وفي المقابل أطلقت فرنسا ثماني سفن طرابلسية وعوضتهم عن الخسائر الناجمة عن التخريب الذي أوقعوه بها. وفي هذا الصدد أيضًا نالت فرنسا عقب اتفاق جرى مع طرابلس، الأفضلية في تحرير أكثر من ألف ومِائتي أسيرٍ أوروبيٍّ دون دفع أية فدية وذلك في سنة ١٦٨٥م. وعاودت فرنسا كَرَّة التفاوض مع الحكومة الطرابلسية في سنة ١٦٩٣م، ونجحت أيضًا في تحرير أربعين أسيرًا فرنسيًّا. كما وقعَّت فرنسا اتفاقية أخرى مع طرابلس بتاريخ ٢ أغسطس ١٧٢٨م كان من ضمن بنودها إطلاق سراح جميع الأسرى الفرنسيين والرعايا التابعين لفرنسا. وبلغ عدد الأسرى الأوروبيين المحريرين في تلك السنة ١٢أسيرًا[١].

وفي ١٢ ابريل ١٧٤٤م أقر الاتفاق الذي جرى بين حكومتي نابولي وطرابلس أن تَمنح حكومة نابولي كميات كبيرة من القمح والشعير وهدايا للباشا في طرابلس، وفي المقابل ترد طرابلس سفن حكومة نابولي التي سبق وغنمتها، إضافة إلى إطلاق سراح جميع أسراها، ولكن الباشا طلب إبقاء شخصية نابولية مهمة وهو "فوسكي" كرهينة حتى يتم التصديق على هذا الاتفاق، وبالفعل وصلت سفينة تابعة لحكومة نابولي محملة بالحبوب، وحصل الباشا على الهدايا الثمينة، ومبلغ قدرها ٤ آلاف زكينيز نقدًا(*)[٢].

---

(١) كوستانزيو برنيا، المرجع السابق، ص ص ٢٦٠، ٢٦١؛ المبروك محمود صالح، القرصنة البحرية في البحر المتوسط، ص ٩١؛ رود لفوميكاكي، المرجع السابق، ص ٤٧؛ بروشين، المرجع السابق، ص ٩٨.

(*) زكينيز: عملة البندقية تعرف باسم الدوكات صدرت سنة ١٢٨٤م وسميت فيما بعد بالزكينو ويساوي ٣,٥٥ غرام ذهب. للمزيد ينظر: سمير علي الخادم، المرجع السابق، ص ٢٨٨.

(٢) رود لفوميكاكي، المرجع السابق، ص ٨٢.

وتماشيًا مع الاتفاقيات المتوالية مع الدول الأخرى، فقد نص الاتفاق المبرم بين طرابلس والبندقية في سنة ١٧٦٥م على تحرير خمسة وأربعين أسيرًا من البندقية، إضافة إلى ضمان احترام سفن البندقية ورعاياها التابعين لها، ومنحهم امتياز تجارة الملح بمدينة زوارة التابعة لحكومة طرابلس[١].

وفي سنة ١٧٩٨م تفاوضت كل من السويد والدانمارك، مع يوسف باشا القرمانلي ليحررا أسراهما وسفنهما. كما أدى توقيع اتفاقية صداقة بين حكومتي طرابلس وانجلترا في سنة ١٨١٢م، إلى إطلاق سراح جميع الأسرى الإنجليز بطرابلس[٢].

أما في السنة التي انعقد فيها مؤتمر فيينا (١٨١٥م)، فقد تَمَّ تحرير خمسة وأربعين أسيرًا دانماركيًّا وذلك بناءً على اتفاق بين الحكومتين. كما وقعت حكومتا سردينيا وصقلية اتفاقية صداقة مع يوسف باشا سنة ١٨١٦م، تم بموجبها تحرير جميع أسراهما. وفي هذا الصدد ذكر شارل فيرو أن عدد الأسرى الأوروبيين الذين أُطلِق سراحهم في ذات السنة بلغ خمسمائة وتسعين أسيرًا. في حين ذكر بروشين أن عدد الأسرى الذين تم تحريرهم خمسمائة وثمانين أسيرًا [٣].

ثامناً: جهود الحكومات الأوروبية لإلغاء الاسترقاق والاتجار بالأسرى:

بذلت الحكومات الأوروبية جهودًا كبيرة من أجل إلغاء استرقاق الأوروبيين. ففي هذا الصدد بعثت الحكومة المالطية في سنة ١٨١٥م برسالة إلى القنصل الإنجليزي "ارنجتون" تشكو فيها من استمرار عمليات القرصنة التي تهدف لاسترقاق الأوروبيين. وكانت انجلترا قد تلقت في هذا الوقت بالذات تكليفًا من مؤتمر فيينا، بأن تفرض بقوة أسطولها على دول الشمال الأفريقي إلغاء استرقاق المسيحيين[٤].

---

(١) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٥٥.

(٢) كولا فولايان، المرجع السابق، ص ٤٨؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٨٩.

(٣) محمد الهادي أبوعجيله، المرجع السابق، ص ٢٤٢، ٢٤٣؛ إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٩٠، شارل فيرو، المرجع السابق، ص ٥٤٦؛ ن.إ.بروشين، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

(٤) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٣٩٠.

وبتاريخ ٢٧ أبريل ١٨١٦م وصل اللورد اكسماوت ممثل الحكومة الإنجليزية لعقد اتفاقية مع يوسف باشا، ضمنت بنودها؛ الزامَهُ بالتوقيع على تعهد خاص بإلغاء استرقاق المسيحيين، ومعاملة الأسرى الأوروبيين معاملة حرب فلا يُباعون ولا يُشترون[١].

أما في ٢٠ نوفمبر ١٨١٥م فقد كان للنجاح الذي حققه "وارنجتون" قنصل انجلترا، في التوسط عند يوسف باشا لصالح مملكة الصقليين، أثره في جعْل حكومة سردينيا تحذو حذو مملكة الصقليين، وتطلب منه التوسط لها عند يوسف باشا، لإطلاق سراح السفينة السردينية "كولميا"، وبحارتها الذين تم أسرهم من قبل البحرية الطرابلسية، إلا أنَّ السفينة تم بيعها لأحد التجار اليهود المقيمين في طرابلس، وعوض يوسف باشا حكومة سردينيا عن السفينة التي تم بيعها[٢]. ولما وصل خبر أسر سفينة تجارية إنجليزية وبحارتها على يد البحارة الطرابلسيين بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٨١٥م غضب قنصل الحكومة الإنجليزية في طرابلس السيد "وارنجتون"، وطالب على الفور بشنق قائد السفن الطرابلسية التي أسرت السفينة الانجليزية بالحبل الذي يرفع العلم الانجليزي تحت سارية هذا العلم، وأن يتم تنفيذ الأمر على أيدي البحارة الانجليز، وإطلاق سراح جميع طاقمها، ويتم السماح لها بالمغادرة، كما يتم تحميلها بكمية كبيرة من الملح تبلغ ثلاثمائة طن[٣].

وبفضل التخطيط الدبلوماسي الذي اتبعه وارنجتون استطاع من خلاله الحصول على المكانة المرموقة في نظر الدول الأوروبية وقناصلها المعتمدين في طرابلس وعند الرعايا الأجانب المقيمين في طرابلس منذ مدة طويلة، مما حدا بكثير من الدول الأوروبية أن تطلب منه تمثيلها في طرابلس الغرب والدفاع عن مصالحها ورعاياها عند الحكومة الطرابلسية حتى أصبح في نهاية سنة ١٨١٥ بمثابة ممثل لكل من مملكة صقلية ونابولي والبرتغال وهولندا والنمسا وهانوفر وتوسكانيا وروسيا. وفي نفس الوقت

---

(١) خليفة محمد التليسي، المرجع السابق، ص ١٤٧.

(٢) عبدالله خليفة الخباط، المرجع السابق، ص ١٠٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ١١٠.

كان يُعتبر ممثلاً للمعهد الأفريقي بمالطا الذي يعمل على تحرير الأسرى الأوروبيين الذين تم أسرهم على أيدي بحارة أساطيل الإيالات الأفريقية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر، وكان أغلبُ هؤلاء الأسرى من الإيطاليين والإسبانيين واليونان، ويتم بيعهم في الأسواق الأفريقية عَلاَنيَة، إلاَّ إذا تقدمت حكوماتهم أو أسرهم بدفع مبالغ مالية كبيرة مقابل تحريرهم من تلك الحكومات الأفريقية أو البحارة الذين تمكنوا من أسرهم وهم على مَتْنِ سفنهم في وسط مياه البحر المتوسط[١].

وبالرغم من هذه المكانة التي حَظِيَ بها القنصل الإنجليزي "وارنجتون" عند الدول الأوروبية وعند يوسف باشا فإنه فشل في بعض الأمور وخاصةً فيما يتعلق بعمليات الجهاد البحري (القرصنة) التي يقوم بها البحارة الطرابلسيون ضدَّ الأساطيل الأجنبية والتي تأتي بمواردٍ ماليةٍ كثيرةٍ تدعم اقتصاد إيالة طرابلس الغرب. وفي ذلك الوقت كلَّف ملك صقلية القنصل "وارنجتون" بالتوسط لدي يوسف باشا في عقد معاهدة صلح بين حكومته وحكومة مملكة صقلية والحكومة النمساوية أيضًا قصْد إيقاف عمليات الغزو والجهاد ضد أساطيلهم في مياه البحر المتوسط، ولكنه فشل في ذلك ولم يتمكن من فرض إرادته على يوسف باشا والحكومة الطرابلسية رغم وجود علاقات وطيدةٍ بين الحكومتين الطرابلسية والانجليزية والمكانة الطيبة التي يتمتع بها "وارنجتون" عند يوسف باشا ووزير خارجته وأعيان الحكومة الطرابلسية [٢].

وبتاريخ ٨ مايو ١٨١٦م اضطُر الباشا بعد ضغوط الدول الأوروبية إلى إلغاء استعباد المسيحيين، والموافقة على إطلاق سراح ١٤٤ أسيراً سردينيًّا ومن جِنْوَا، كما أُطلِق ٤٢٢ أسيرًا من نابولي مقابل فدية بلغت خمسين ألف قرش[٣].

أما في سنة ١٨٢١م فقد وافق يوسف باشا على طلب "وارنجتون" على إطلاق سراح تسعة أسرى من البحارة الإيطاليين، تم أسرهم من قبل البحرية الطرابلسية[٤].

---

(١) عبدالله خليفة الخباط، المرجع السابق،، ص ١١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ص ١١٢، ١١٣.

(٣) المرجع نفسه، ص ص ١١٨، ١١٩.

(٤) رود لفوميكاكي، المرجع السابق، ص ١٧٦.

تغير الوضع السياسي في الشمال الأفريقي تغيرًا جِذريًّا و عميقًا باحتلال فرنسا للجزائر بتاريخ ٥ يوليو ١٨٣٠م، فبعد ذلك بشهر وصل إلى طرابلس بتاريخ ٩ أغسطس الأميرال "كلود روساميل" الذي أجرى محادثات مع الحاج محمد بيت المال، أسفرت عن توقيع اتفاقية بتاريخ ١١ أغسطس، وقد أقر الباشا في هذه الاتفاقية بالتزامه إلغاءً نهائيًّا وبصفة دائمةٍ استرقاق المسيحيين في إيالته، وأن يطلق سراح جميع الأرقاء الموجودين بها، كما أنه ينبغي اعتبار الأسرى الأوروبيين في زمن الحرب أسرى حقيقيين تجري معاملتهم طبقًا للقوانين الأوروبية المتعارف عليها، ويحق للدول الأجنبية أن تقيم قنصليات ووكلاء تجاريين في جميع أنحاء البلاد، دون أن تدفع أي هبة أو هدية، كما التزم الباشا أيضًا بدفع تعويض عن الحملة وديون الفرنسيين وهو مبلغ ثمانمائة ألف فرنك، نصفها يدفع فورًا ويدفع الباقي في مدة أقصاها ٢٠ ديسمبر[١].

مما سبق نستنتج ما يلي:

- أهمية موقع إيالة طرابلس الغرب الجغرافي جعلتها تتبوأ مركزًا مهمًّا في نشاط الجهاد البحري.
- نشاط الجهاد البحري وما استتبعه من أسر للأوروبيين ظل مزدهرًا؛ نظرًا للاهتمام المتواصل من الباشوات بهذا النشاط.
- عاش الأسرى الأوربيون حياة عادية كباقي الطرابلسيين لا تخلو هذه العيشة من قسوة ولا رأفة، وتم الاستعانة بخبراتهم وبكفاءاتهم في الورش والأعمال الكبرى. كما مُنِحوا كامل حقوق العبادة.
- تفاوتت حالة السبايا الأوروبيات الاجتماعية والاقتصادية حيث ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بأسيادهن من الأمراء والباشوات وكبار رجال الإيالة، إذ تراوحت بين حياة الترف في بلاط الأميرات وبين سبايا جُل ما يحصلن عليه مجرد سد رمقهن والحصول على

---

(١) إتوري روسي، المرجع السابق، ص ٤٠٣.

قوت يومهن مقابل ما يبذلنه من جهد عضلي، لذا لا يمكننا أن نجزم بحالة اقتصادية جيدة لهن، إذ كانت فقط بحسب مستوى السيد الذي اشتراهن.

- اختلفت مكانة الأسرى الأوروبيين الاجتماعية بحسب الطبقة التي ينتمي إليها أسيادهم، لذا اختلفت مكانتهم الاقتصادية على إثر ذلك، فامتلكوا الأموال والأمتعة حسب المهن التي زاولوها.
- إنَّ الخدمات الطبية التي قدمتها البعثات التنصيرية كانت مرهونة ومتفاوتة بحسب مزاج الولاة العثمانيين، فاحتُكِرت في بعض الأحيان لخدمة الباشا وعائلته وكبار الحاشية، والدليل على ذلك هو تمكن البحارة الطرابلسيين من أسر العديد من الأطباء الأوروبيين، فكانوا يستغلونهم في علاجهم.

ضغطت الحكومات الأوروبية على حكام طرابلس لافتداء أسراها، وقد أكدت العديد من الحكومات على قناصلها أن يكون افتداء الأسرى من أولويات أعمالهم.

وفي الختام إن هذا الموضوع غاية في الأهمية ويحتاج إلى مزيد من البحث والتدقيق والدراسات المتعمقة و التي من خلالها يمكن زيادة المعلومات حول التفاصيل المتعلقة بحياة أولئك الأسرى في إيالة طرابلس الغرب خلال العهد العثماني.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: الوثائق:

(وثائق غير منشورة دار المحفوظات التاريخية طرابلس):

- ملفات الرقيق، م ٨/ م٢ طرابلس جمادي الأول ١٢٩٦هـ.
- ملفات الوثائق العربية ملف رقم (١٧).
- ملفات الشؤون الداخلية، ملف رقم (٢٨).
- ملفات نظارة الداخلية، ملف رقم (٢) تتحدث عن حياة الرقيق وثيقة رقم (٤٣).
- وثيقة رقم (٤٣)، تتحدث عن حياة الرقيق في الولاية.
- وثيقة رقم ١٠٦٢ بخصوص البحث عن آباء اللقطاء وأمهاتهم من قبل السلطات، (د.ت).
- ملفات الوثائق مختلفة المواضيع، وثيقة رقم (٦٣٣).

ثانيًا: المصادر العربية والمعربة:

- حسن الفقيه حسن، اليوميات الليبية، تحقيق: عمار جحيدر، طرابلس مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ج٢، ٢٠٠١م.
- رتشارد توللي، عشرة أعوام في طرابلس ١٧٨٣-١٧٩٣، ترجمة: عبدالجليل الطاهر، منشورات الجامعة الليبية: دار ليبيا للنشر والتوزيع – بنغازي، ١٩٦٧م.
- محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، تحقيق: محمود خاطر، ط١، ج١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- محمد خليل بن غلبون، التذكار من ملك طرابلس وما بها من الأخبار، عني بنشره وتصحيحه والتعليق عليه الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس، مطبعة النور، ط٢، ١٩٦٧م.
- محمد بن منظور الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١، ج٥. ١٩٦٢م.

- إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١، ترجمة وتقديم: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ١٩٦٨م.
- خليفة محمد التليسى، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، ليبيا – تونس الدار العربية، ١٩٨٥م.
- خليفة محمد الأحول، بحوث ومقالات في مصادر تاريخ ليبيا الحديث، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس، ٢٠٠٧م.
- رودلفو ميكاكي، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، نقله للغة العربية: طه فوزي، طرابلس: دار الفرجاني، (د.ت).
- رؤوف محمد بن عامر، تطور الوضع الصحي في ليبيا، دار الكتاب العربية، ١٩٩٧م.
- سامح إبراهيم عبدالفتاح، العلاقات التجارية بين مصر وولايات المغرب العثمانية في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي)، منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية طرابلس ٢٠١٠م.
- سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات القيادة الشعبية الاجتماعية – زليتن – ليبيا، ٢٠٠٥م.
- سمير علي الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحي – عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط (١٤٥٠–١٥١٧م)، مؤسسة الريحاني، بيروت، لبنان ١٩٨٩م.
- سهيل إدريس، المنهل، قاموس فرنسي – عربي، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٤م.
- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تعريب: محمد عبدالكريم الوافي، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٩٨٣م.
- عبدالله خليفة الخباط، العلاقة السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وانجلترا ١٧٩٥–١٨٣٢م، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٩٨٥م.

- علي مفتاح إبراهيم، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس، ٢٠٠٥م.
- عفاف البشير المبروك، المرأة في المجتمع الليبي خلال العصر العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م، طرابلس: وزارة الثقافة والمجتمع المدني، ٢٠١٣م.
- عَزيز سَامِح التِر، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، بيروت – لبنان: دار النهضة العربية ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- عماد الدين غانم، رحلة عبر أفريقيا، مشاهدات الرحالة الألماني رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا ١٨٦٥-١٨٦٧، دراسة وترجمة: عماد الدين غانم، طرابلس: كلية العلوم الاجتماعية التطبيقية، ١٩٩٦م.
- الأب فرنشيسكو روفيري، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية – التاريخ الكرونولوجي لبرقة (١٥٥١-١٩١١)، ترجمة وتقديم: إبراهيم أحمد المهدوي، مراجعة: شمس الدين عرابي بن عمران، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٣م.
- كاميللو مانغروني، العلاقات البحرية بين ليبيا وإيطاليا/ تاريخ البحرية الليبية، ترجمة وتقديم: إبراهيم أحمد المهدوي، مراجعة: أحمد الجهاني، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، ط١، ١٩٩٢م.
- كوستا نزيو برنيا، طرابلس من ١٥١٠ إلى ١٨٥٠، تعريب: خليفة محمد التليسي، طرابلس: الناشر الفرجاني، ١٩٦٩م.
- كولا فولايان، ليبيا أثناء حكم يوسف باشا القره مانلي، منشورات مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، ١٩٨٨م.
- المؤلف مجهول: حكْم علي قرمانليّ باشا طرابلس الغرب ١٧٩٣م "تكملة تارْيخ إيَالة طَرابلس الغَربْ، تحقيق وترجمة: يان فانسينا وعبدالرحمن أيوب، مراجعة: عبدالحكيم الأربد، طرابلس: منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، ١٩٧٨م.

- مصطفى عبدالله بعيو، دراسات في التاريخ اللوبي – الإسكندرية، ١٩٥٣م.
- محمد عبدالكريم الوافي، يوسُف باشا القرمانلي والحملة الفرنسِيَّة على مصر، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٩٨٤م.
- محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت: دار الجيل (أوفست)، ١٩٧٧م.
- محمد الهادي أبو عجيلة، النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية ١٧١١-١٨٣٥م وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ١٩٩٧م.
- مكاييل سرفنتيس، دون كيشوت، تعريب: أكرم الرافعي، دار العلم للملايين، لبنان – بيروت ط١، ١٩٧٥م
- ن.إ. بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث – منتصف القرن السادس عشر – مطلع القرن العشرين، ترجمة وتقديم: عماد الدين غانم حاتم، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ٢٠٠٥م.
- نجم الدين غالب الكيب، مدينة طرابلس عبر التاريخ، ليبيا – تونس: الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٧٨م.
- نوري عمر الشتيوي، التجارة البحرية في ولاية طرابلس الغرب في العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م، طرابلس: منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ٢٠٠٥م.
- الهادي مصطفى بولقمة، الساحل الليبي، بنغازي: منشورات جامعة قاريونس، ط١، ١٩٩٧م.
- _____، دراسات ليبية، بنغازي، مكتبة قورينا للنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٧٥م.
- ياسين شهاب الموصلي، الأوضاع الاقتصادية في ولاية طرابلس الغرب ومتصرفية بنغازي ١٨٣٥-١٩١١م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ٢٠٠٦م.

ثالثًا: البحوث والمقالات:

- جون وولف، رياس البحر، ترجمة: أبي القاسم سعد الله، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، العدد الثالث، لسنة ١٩٨٧م.
- سعيد علي حامد، مساجد طرابلس القديمة، مجلة تراث الشعب، السنة الحادية عشرة، العدد الأول ١٩٩١م.
- سعيد داود طوقدمير، الأطباء والصيادلة في ليبيا منذ التاريخ القديم إلى سنة ١٩١٠، مجلة الأفكار، العدد العاشر، السنة الثانية، فبراير ١٩٥٧م.
- عبدالرازق أحمد النصيري، "الجالية المالطية في طرابلس الغرب ودورها الاقتصادي في العهد العثماني"، مجلة البحوث التاريخية، السنة الحادية والثلاثون – العدد الأول – يناير ٢٠٠٩م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس.
- عبدالكريم أبوشويرب، الحمامات الإسلامية، مجلة آثار العرب، العدد الخامس، طرابلس سبتمبر ١٩٩٢م.
- المبروك محمود صالح، "القرصنة البحرية في البحر المتوسط خلال عهد الأسرة القرمانلية (ولاية طرابلس الغرب ١٧١١-١٨٣٥م)، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية- العدد الثاني والثمانون-يوليو ٢٠١٠م.
- _____، عوامل ازدهار وتدهور تجارة الحبوب في إيالة طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي (١٧١١-١٨٣٥)، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية- العدد الثاني والثمانون-أكتوبر ٢٠١٢م.
- محمد رزوق، قضية الرق في تاريخ المغرب، مجلة البحوث التاريخية، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، السنة الثامنة، العدد الثاني، يوليو ١٩٨٦م.

رابعًا: الندوات والمؤتمرات:

- حبيب وداعه الحسناوى، "الأوضاع الصحية للمنفيين الليبيين في الجزر الإيطالية أرخبيل تريميتي كنموذج ١٩١١-١٩١٢"، الأوضاع الصحية في ليبيا ١٨٣٥-

١٩٥٠ أعمال الندوة العلمية التاسعة التي عقدت بمدينة المرج في الفترة ٦/٣٠ إلى ٢٠٠١/٧/٤، تحرير: محمود أحمد الديك، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ٢٠٠٩م.

- محمود أحمد الديك، "الأوضاع الصحية في طرابلس (ليبيا) منذ العهد العثماني وحتى فترة الاستعمار الإيطالي"، الأوضاع الصحية في ليبيا ١٨٣٥-١٩٥٠ أعمال الندوة العلمية التاسعة التي عقدت بمدينة المرج في الفترة من ٦/٣٠ إلى ٢٠٠١/٧/٤، تحرير: محمود أحمد الديك، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية طرابلس ٢٠٠٩م.

خامسًا: الرسائل العلمية:

- المبروك محمود صالح، التجارة البحرية لإقليم برقة خلال العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١٢م، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة عين شمس، ٢٠١٢/٨/١٣م.
- _____، الأوضاع الصحية في إقليم برقة خلال العهد العثماني الثاني ١٨٣٥-١٩١١م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة عمر المختار، ٢٠٠٦/٦/٧م.

سادسًا: الكتب الأجنبية:

- Charlesworth (M.P); the Roman Empire London, 1961.
- Galibert (M.LEEON). L'Algerie ancienne et modern, Paris, 1844.